خالد بن الوليد في العراق

دراسة تأريخية جغرافية عسكرية

تـأليف

طه الهاشمي

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

مجلة المجمع العلمي العراقي

١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م

الجزء الأول

خالد بن الوليد في العراق

دراسة تأريخية جغرافية عسكرية

ورد في أكثر الروايات أن خالد بن الوليد ذهب الى العراق بعد قضائه على الردة في اليمامة وقد اختلف الرواة ، على عادتهم ، في تأريخ سفره وفي الطريق التي سلكها في سفره ذلك ومن الروايات ما تزعم أن خالداً عاد من اليمامة الى المدينة ، ومنها ذهب الى العراق ولكن أغلب الروايات تؤيد سفره الى العراق من اليمامة والاختلاف بارز بين الروايات المدنية والروايات الكوفية في الجهة التي اختارها خالد في سفره الى العراق فبعض الروايات المدنية تروي أن خالداً توجه نحو الحيرة ، وحارب الفرس وأحلافهم في أطراف الحيرة ، ثم توجه بعد ذلك نحو الشمال على حين تذكر الروايات الكوفية ، وممثلها سيف بن عمر ، أن خالداً توجه من اليمامة الى أطراف البصرة وقاتل الفرس ، ثم سلك وادي الفرات واشترك في عدة معارك في طريقه الى الحيرة وبعد فتحه الحيرة ، توجه الى الشمال ، ثم ذهب الى دومة الجندل لمساعدة عياض بن غنم ؛ وبعد أن افتتحها رجع الى العراق ففتح عين التمر ، ثم سار مرة أخرى الى الشمال سالكاً وادي الفرات تارةً وقاطعاً البادية تارةً أخرى ، يحارب الفرس ويقاتل قبائل تغلب حلفاء الفرس ، حتى تم له الفتح

تأريخ سفر خالد من اليمامة :

من الصعب أن يتحقق الباحث وقت سفر خالد الى العراق ، ولو لا بعض أخبار وردت في الروايات تدل على شدة البرد ، أو حلول موسم الشتاء ، أو تفرق الناس وراء الماء ، لما سهل على الباحث أن يتبين الوقت وقد ترد في الروايات تواريخ بالسنة القمرية ، يعتمد عليها في سير الحوادث ، ولكن سرعان ما يظهر له أن التأريخ المذكور لا ينطبق على أحوال الموسم فالوقائع التي وقعت مثلاً في شهري ربيع الأول وربيع الثاني ، هل وقعت حقاً في هذين الشهرين أو في

موسم الربيع ، وكذلك الحوادث التي وقعت في صفر ، هل وقعت حقاً في شهر صفر أو في موسم الخريف الذي ما زال البدو يطلقون عليه اسم الصفاري أو الصفاريات أو صفر الأصفار ؟ والموسم هذا يبدأ بشهر أيلول ، وينتهي في تشرين الثاني ؛ لهذا اذا اعتمد المتتبع على أن كلمة ربيع الأول وربيع الثاني وصفر التي تعني الأشهر القمرية ، فقد يرتكب خطأ ، ولا سيما اذا أدرك أن الإشارات الواردة في الرواية كشدة البرد وكثرة المياه أو قلتها أو الصيام أو الحج أو حادثة من حوادث السنة الشمسية التي تدل على أن الشهر القمري الوارد ذكره في الرواية ، لا تنطبق على الشهر الشمسي

نذكر على سبيل المثال أن الروايات أجمعت على أن خالد بن الوليد أغار على الغسانيين في مرج راهط يوم فصحهم ولما كانت هذه الحادثة قد وقعت في سنة ١٣ هـ ، أي سنة (٦٣٤ م) ، فان عيد الفصح لهذه السنة يوافق اليوم الرابع والعشرين من نيسان على حين ذكرت أكثر الروايات أن خالدا غادر العراق الى الشام في شهر ربيع الثاني ، واليوم الرابع والعشرين من نيسان إنما يوافق اليوم الثامن عشر من صفر

وكذلك حشر سيف بن عمر كثيراً من وقائع العراق في صفر والمتتبع لسير الحوادث يصعب عليه أن يصدق إمكان حشر تلك الوقائع في شهر واحد ، لهذا يرد على الخاطر أن كلمة صفر الواردة في الرواية قد تعني الصفاريات أو صفر الأصفار ، أي موسم الخريف ، ولا سيما اذا لاح له أن في الوقائع المذكورة إشارات تدل على موسم الخريف ومن اليسير على الباحث أن يطبق الشهر القمري لأية سنة كانت على الشهر الشمسي لأية سنة ميلادية ، وبذلك يتحقق مطابقة شروط الموسم على واقعات الحادثة ، كما بينا مطابقة عيد الغسانيين في مرج راهط لليوم الرابع والعشرين من نيسان من سنة ٦٣٤ م ولما كانت غرة المحرم من سنة ١٣ للهجرة توافق سابع آذار من سنة ٦٣٤ م ، فاليوم الرابع والعشرون من نيسان يوافق ثامن عشر صفر وبهذه المطابقة ، يتضح للباحث أن شهر ربيع الذي جاء في الرواية أن خالداً غادر فيه العراق الى الشام ، لا يمكن أن يكون ؛ لأن خالدا قضى هذا الشهر وهو في الشام ، فلا بد أن يكون الربيع الوارد في الرواية هو موسم الربيع . وفي الحق أن خالد بن الوليد قضى سفره من العراق الى الشام زهاء شهر ونصف شهر . فقد ترك العراق في أوائل آذار ، أي في موسم الربيع

متى سافر خالد من اليمامة ؟

جاء في رواية المدائني عن الشعبي أن أبا بكر وجه خالداً الى أرض الكوفة وفيها المثنى ، فسار في المحرم سنة ١٢ هـ ، فجعل طريقه الكوفة [١]

ومما يؤيد رواية المدائني أن عبد الباقي بن نافع روى أن معركة اليمامة كانت في آخر سنة إحدى عشرة ، وأيد خليفة بن خياط أنها كانت في سنة إحدى عشرة ، ولكن ذكر الواقدي أنها كانت في سنة اثنتي عشرة ، وقال أبو معشر : كانت وقعة اليمامة في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ، وكذلك روى أبو بشر الدولابي وقال اليعقوبي : إن القتال وقع في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة

وأراد الذهبي أن يوفق بين هذه الروايات المتضاربة ، فقال : ولعل مبدأ وقعة اليمامة كان في آخر سنة إحدى عشرة ، ومنتهاها في أوائل سنة اثنتي عشرة [٢]

وفي رواية لأبي هريرة أن سلمة بن عمير الحنفي استحث الناس على المقاومة بعد معركة (عقرباء) قائلاً لهم : « يا بني حنيفة ، قاتلوا عن أحسابكم ، ولا تصالحوا على شيء ؛ فان الحصن حصين ، وقد حضر الشتاء [٣] »

وهذا يدل على أن وقعة اليمامة كانت قبل شتاء سنة إحدى عشرة للهجرة ، أي سنة (٦٣٢م) . والشتاء في تلك السنة يوافق أشهر رمضان وشوال وذي القعدة وذي الحجة ، مما يستدل منه على أن معركة عقرباء وقعت بعد منتصف سنة إحدى عشرة للهجرة وقد بدا لنا مما تقدم صعوبة تعيين تأريخ الحوادث اذا اعتمدنا على التواريخ التي أوردتها الروايات واذ كان خالد بن الوليد ذهب الى العراق بعد انتهاء الحركات في اليمامة ، فينبغي لنا أن نبت في الزمن الذي وقعت فيه معركة عقرباء على وجه التقريب ، وتعيين ذلك الزمن يتطلب درس تأريخ الحوادث التي جرت قبل القتال في اليمامة وليس من شك أن مبدأ تلك الحوادث هو تأريخ وفاة الرسول ، صلى الله عليه وسلم

(١) الطبري (٢/٢٥١) اعتمدنا في البحث على تأريخ الطبري المطبوع في القاهرة مطبعة الاستقامة سنة ١٩٣٩ م
(٢) الذهبي (٢/٣٧٥) (٣) الطبري (٢/٢٧٨)

توفي الرسول في ١٢ ربيع الأول من سنة إحدى عشرة للهجرة ، وهذا التأريخ يوافق اليوم السابع عشر من أيار سنة (٦٣٢ م) ومن الثابت أن أبا بكر جهز الجيوش لمحاربة أهل الردة بعد عودة جيش أسامة من سفره في الشمال والروايات تكاد تجمع على أن جيش أسامة قضى في سفره ذهاباً وإياباً أكثر من شهرين وكان هذا الجيش متحشداً في الجرف شمالي المدينة متأهباً للسفر ، ولكن مرض الرسول ووفاته أجلا سفره ومن الطبيعي أن ينتظر في الجرف بضعة أيام بعد وفاة الرسول ، لأن الروايات تؤكد أن كبار الصحابة أشاروا على أبي بكر أن يبقيه ، ولا سيما بعد أن وردت أخبار ردة العرب الى المدينة ولكن أبا بكر لم يعمل بشورهم ، وأصر على تنفيذ رغبة الرسول في إنفاذ أسامة وجاء في رواية لابن عساكر أن مخرج أسامة من الجرف لهلال شهر ربيع الآخر من سنة إحدى عشرة [1] ، أي بعد وفاة الرسول بسبعة عشر يوماً وإذا صدقنا الروايات القائلة إن أسامة قضى في سفره شهرين فأكثر بالرغم من وجود روايات تزعم أنه غاب خمسة وثلاثين يوماً أو أكثر عن المدينة كما في رواية لابن عساكر جاء فيها أن أسامة غاب خمسة وثلاثين يوماً : سار عشرين في بدايته ، وخمسة عشر في رجعته ، فلعل راوي ابن عساكر اكتفى بذكر أيام السفر فقط ، ولم يذكر الأيام التي أقام فيها والروايات تؤيد أن أسامة وطيء بخيله (آبل الزيت) ، وهي القرية التي أمر الرسول أسامة أن يوطئها خيله وجاء في معجم البلدان : أن آبل الزيت واقعة في الأردن ، والمسافة بين المدينة والأردن لا تقل عن ألف كيلو متر ، أي مسير عشرين يوماً ، لهذا لا يستبعد أن أسامة قضى في سفره شهرين : قضى أربعين يوماً في المسير ، والباقي في الإقامة هنا وهناك. بهذا يجوز الإعتماد على الروايات التي ذكرت أن أسامة غاب عن المدينة شهرين فأكثر ، ومعنى ذلك أن الجيش عاد الى المدينة في أوائل جمادى الآخرة ، أي في أوائل شهر آب من سنة (٦٣٢ م) لهذا نستطيع أن نثبت على وجه التقريب تأريخ حركة خالد من ذي القصة الى بزاخة لمقاتلة طليحة بن خويلد

وفي رواية الواقدي عن ابن حبيش أن حركة خالد كانت في السابع والعشرين من الشهر ،

(١) ابن عساكر (١/٤٠٤)

ولعله شهر جمادى الآخرة ومن الطبيعي أن يقضي جيش أسامة بعض الأيام في المدينة للاستراحة ، قبل أن تتوجه قواته الى ذي القصة لمقاتلة المرتدين ذكر الطبري أن أبا بكر استخلف أسامة على المدينة ، فسار ونزل بذي القصة في جمادى الأولى ، وأضاف قائلاً : ويقال في جمادى الآخرة [1] وفي رواية لسيف بن عمر أن أبا بكر عقد الألوية للأمراء في ذي القصة ، فعقد لخالد بن الوليد وأمره بطلحة بن خويلد ، فاذا فرغ منه سار الى مالك بن نويرة بالبطاح [2]

قضى في بزاخة في القتال وتأديب عبس وذبيان وتسلم الصدقات أكثر من عشرين يوماً ، وفي رواية للطبري أن خالداً أقام في بزاخة شهراً [3] ، ثم تقدم نحو بني تميم في البطاح وفي الروايات معلومات تشير الى أن أبا بكر قاتل المرتدين من أسد وفزارة وغطفان في الصيف ؛ وفي رواية لسيف بن عمر أن البلاد لم تحمل المرتدين ، فافترقوا فرقتين ، فأقامت فرقة بالأبرق ، وسارت الأخرى الى ذي القصة [4] ، وتفرق المرتدون في أماكن مختلفة لأن البلاد لم تحملهم ، وذلك يدل على أن المياه كانت قليلة بحيث لم يكن للقبائل المرتدة القريبة من المدينة أن تجتمع في محل واحد ؛ لأن القبائل لا تجتمع الا في أماكن المياه

ويظهر من الروايات أن خالداً ، بعد أن أنهى أمر طليحة في بزاخة ، مكث في بني أسد قبل أن يتوجه نحو البطاح ، حتى إن الأنصار ترددت على خالد ، وتخلفت عنه لما اعتزم أن يتوجه نحو البطاح ولما رأوه سار الى بني تميم ، ندموا ، فأجمعوا على اللحاق به ، وجردوا اليه رسولاً ، فأقام عليهم ، حتى لحقوا به ثم سار حتى قدم البطاح ، فلم يجد بها أحداً [5]

وفي رواية لسيف بن عمر أن الليلة التي قتل فيها مالك بن نويرة ، كانت باردة لا يقوم لها شيء ، وجعلت تزداد برداً ، فأمر خالد منادياً فنادى : أدفئوا أسراكم ؛ ومع أن هذه الرواية قد رويت لتسويغ عمل خالد في قتله مالكاً ، فانها ولا شك تشير الى أن الليالي في أثناء غزو خالد لبني تميم في أطراف البطاح كانت باردة ، مما يدل على أن الموسم كان خريفاً والخريف يبدأ في نجد

(١) الطبري (٢/٤٧٤)
(٢) الطبري (١/٨٠ :)
(٣) الطبري (١/٩١ :)
(٤) الطبري (١/٧٦ :)
(٥) الطبري (١/٥٠١ ، ٢ ٥)

بأيلول ، وينتهي فى نهاية تشرين الثاني يفهم من ذلك أن خالداً تقدم نحو البطاح فى أيلول ، وهذا ينطبق على مجرى التأريخ الذى أثبتناه

قضى خالد مدة غير قصيرة فى بني تميم قبل سفره الى اليمامة ورواية أبي عزيزة التي أشرنا اليها آنفاً تشير الى أن معركة (عقرباء) وقعت قبيل الشتاء ، وقد قال سلمة بن عمير الحنفي لبني حنيفة يحثهم على مقاومة خالد : « فان الحصن حصين ، وقد حضر الشتاء » وفى رواية أخرى لسيف بن عمر [1] قول سلمة بن عمير الحنفي لجماعة : « لا والله لا نقبل صلح خالد نبعث القرى والعبيد ، فنقاتل ، ولا نقاضي خالداً ، فان الحصون حصينة ، والطعام كثير ، والشتاء قد حضر » لهذا لا يستبعد أن الحركات فى اليمامة جرت فى تشرين الثاني ، أي قبيل موسم الشتاء وتشرين الثاني في سنة (٦٣٢ م) يوافق شوالاً من سنة إحدى عشرة للهجرة ، والشتاء يبدأ فى كانون الأول

والذى نستخرجه من بحثنا أن الرواية التي تزعم أن وقعة اليمامة حدثت فى شهر ربيع الأول سنة أثنتي عشرة للهجرة ، لا يعتمد عليها

لا نعلم المدة التي قضاها خالد فى اليمامة بعد عقده الصلح مع بني حنيفة ومن المؤكد أنه قضى مدة طويلة في اليمامة لتوطيد الأمن فيها ، لهذا قد تصح رواية المدائني أن خالداً تسلم أمر أبي بكر بالمسير الى العراق فى المحرم ، أى فى بداية سنة أثنتي عشرة للهجرة ، ومبدأ هذه السنة يوافق ١٨ آذار من سنة (٦٣٣ م)

أما تأريخ فتوحات خالد فى العراق ، ففيه ما يؤيد مسير خالد الى العراق فى المحرم ذكر الطبرى أن وقعة المذار والولجة وقعتا فى صفر ، ولكن الروايات التي أستند اليها فى سرده لفتوح العراق جعلت أكثرها تتم في صفر ، فكانت وقعة المذار فى صفر ، وجرى قتال الولجة فى صفر ، ونزل قائد الفرس بهمن جاذويه بأليس فى صفر ، وتم فتح أمغيشيا فى صفر ، وكتاب الصلح مع ابن صلوبا صاحب بانقيا وباروسما كتب فى صفر كيف حشرت كل هذه الحوادث فى شهر واحد ؟

(١) الطبرى (١/٥١٧)

واذا صدقنا رواية المدائني أن خالداً سار من طريق اليمامة ، في المحرم من سنة أثنتي عشرة ، وجعل طريقه أرض البصرة ، فانه لا يصل الى أطراف البصرة الا في نهاية المحرم هذا اذا فرضنا أنه غادر اليمامة في أوائل الشهر ؛ لأن المسافة بين اليمامة والبصرة نحو من ألف كيلو متر ، ولا تقطع بأقل من عشرين يوماً ؛ فللباحث أن يتساءل أي صفر هذا ؟ أهو الشهر القمري صفر ، أم أشهر الصفاريات أي أشهر الخريف لدى العرب وهي أيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني ؟ وهذه الأشهر في سنة (٦٣٣ م) توافق أشهر رجب وشعبان ورمضان لسنة أثنتي عشرة للهجرة أفضى خالد خمسة أشهر في سفره من اليمامة وفي غزواته لأطراف البصرة ؟

وفي الروايات حادثة يصعب تصديقها ، لأنها لا تقع عادة في زمن فيضان نهر الفرات في جنوبي العراق فان فيضان هذا النهر يبدأ في منتصف شهر نيسان حيث تكثر مقادير المياه في النهر ، فتفيض على الأطراف ، ولا تمكن السيطرة عليها الا بمشقة وقد ورد خبر الحادثة في حوادث يوم المقر وفم فرات باذقلى حيثما سد القائد الفارسي الأزاذ به نهر الفرات ، ليحول دون سير سفن خالد التي حملت الأثقال والمشاة في طريقها الى فم نهر العتيق إن سد النهر في وقت الفيضان أمر صعب ، وإن جرت المياه وانسابت في شعبة أخرى

يوافق غرة صفر من سنة اثنتي عشرة للهجرة ، اليوم السابع عشر من نيسان من سنة (٦٣٣ م) وفي خبر آخر أن خالداً أفطر في الفراض ، وحادثة الفراض وقعت بعد انتهاء خالد من فتح الحيرة وفتح دومة الجندل وغاراته في الجزيرة على تغلب في المصيخ والحصيد

ويوافق شوال من السنة الهجرية المذكورة شهر كانون الأول من سنة (٦٣٣ م) ، أي بعد الخريف ولكن روايتين أخريين تزعمان أن خالداً عبر النهر من الفراض في نصف ذي القعدة ، وأنه أقام في الفراض عشرة أيام ، وقفل الى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة واذا صحت هاتان الروايتان ، فيكون خالد قد قضى أكثر من شهر ونصف شهر في الفراض ، أي شوالاً وأكثر من نصف ذي القعدة وهذا أمر مستبعد ؛ لأن الفراض قلعة حصينة للروم ، أقيمت على الضفة اليمنى للفرات ، يقابلها حصن للفرس في الضفة اليسرى ، وليس في أخبار الفتوح ما يؤيد أن خالداً فتح الفراض . وفي رواية أخرى للشعبي أن خالداً بقي سنة في العراق ،

وقد تذمر من بقائه سنة فيه بعد أن عهد اليه أن يقتحم بلاد فارس ، وقال : « إنها لسنة كأنها سنة نساء »

وقد تأيد لنا أن أبا بكر أمر خالداً بالمسير الى الشام فى أوائل سنة ثلاث عشرة للهجرة ، وذكر سيف بن عمر أن كتاب أبي بكر وافى خالداً بالحيرة مُنْصَرَفَهُ من حجه أما المدائني فجعل حركة خالد من العراق الى الشام فى شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث عشرة للهجرة والثابت أن خالداً أغار على الغسانيين فى يوم عيد فصحهم ، وهذا ـ كما أشرنا من قبل ـ يوافق اليوم الرابع والعشرين من نيسان من سنة (٦٣٤ م) أي اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث عشرة للهجرة لهذا لا يصح تصديق رواية المدائني وقد أثبتنا فى مقالنا « سفر خالد بن الوليد من العراق الى الشام »[١] أن خالداً ترك العراق بعد منتصف مارت ، أي فى أواخر المحرم من سنة ثلاث عشرة للهجرة واذا كان خالد بقي حقاً سنة فى العراق ، فيكون قد وصل اليه من اليمامة فى أوائل سنة أثنتى عشرة للهجرة ، وهذا ينطبق على رواية المدائني أن أبا بكر وجه خالداً الى العراق فى المحرم من سنة أثنتى عشرة للهجرة

لقد أوضحنا فيما سبق اختلاف الروايات فى تأريخ الوقائع التي جرت فى العراق ، وصعوبة التوصل الى تأريخ صحيح ، ولكننا نميل الى أن خالداً ترك اليمامة فى المحرم من سنة أثنتى عشرة للهجرة ، بعد أن أثبتنا أن معركة اليمامة وقعت قبيل الشتاء ، أي فى تشرين الثاني ، وأبدينا أن الشهرين اللذين قضاهما خالد فى اليمامة بعد المعركة يكفيان لتوطيد الأمن ، وجمع الصدقات من بني حنيفة واذا كانت غرة المحرم من سنة أثنتى عشرة للهجرة توافق اليوم الثامن عشر من آذار من سنة (٦٣٣ م) ، فيكون خالد قد غادر اليمامة فى النصف الثاني من آذار ، وبلغ أطراف البصرة فى منتصف نيسان من سنة (٦٣٣ م) أي فى أوائل صفر من سنة اثنتى عشرة للهجرة

الطريق التى سلكها خالد :

نذكر فيما يلي الروايات التي ذكرت سفر خالد بن الوليد من اليمامة الى العراق ونبدأ بما جاء منها فى تأريخ الطبري :

(١) نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، في أجزاء سنة ١٩٥٢ م

ا ـ روى الشعبي أن أبا بكر كتب الى خالد بعد فراغه من أمر اليمامة : أنْ سِرْ الى العراق حتى تدخلها ، وأبدأ بفرج الهند ، وهي الأُبُـلّة (١)

ب ـ روى المدائني أن أبا بكر وجه خالد بن الوليد الى أرض الكوفة وفيها المثنى بن حارثة الشيباني ، فسار فى المحرم من سنة أثنتي عشرة للهجرة ، فجعل طريقه البصرة (١)

ج ـ وقال الواقدي : انه أختلف فى أمر خالد ، فقائل يقول : مضى من وجهه ذلك من اليمامة الى العراق ، وقائل يقول : رجع من اليمامة الى العراق ، وقائل يقول : رجع من اليمامة فقدم المدينة ثم سار الى العراق من المدينة على طريق الكوفة حتى أنتهى الى الحيرة (١)

د ـ أما أبن إسحاق فذكر أن أبا بكر كتب الى خالد يأمره أن يسير الى العراق ، فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقريات من السواد يقال لها بانقيا وباروسما وألّـيس (١)

هـ ـ وروى هشام بن الكلبي أن أبا بكر كتب الى خالد ، وهو باليمامة ، أن يسير الى الشام ، أمره أن يبدأ بالعراق فيمر بها فأقبل خالد مها يسير حتى نزل (النباج) (١)

و ـ وفى رواية لسيف بن عمر أن أبا بكر كتب الى خالد : إن فتح الله عليك ، فعارق حتى تلقى عياضاً (١)

ز ـ وفى رواية للمغيرة بن عتبة أن أبا بكر أمر خالد بن الوليد على حرب أهل العراق أن يدخلها من أسفلها ، وإلى عياض أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستبقا الى الحيرة (١)

(٢) وذكر أبو يوسف نقلاً عن أبن إسحاق وغيره من أهل العلم بالفتوح ، قال : لما قدم خالد من اليمامة دخل على أبا بكر وخرج وأقام أياماً ، ثم وجهه أبو بكر الى العراق فانتهى الى شراف ، ثم انتهوا الى المغيثة(٢)

(٣) ذكر البلاذرى أن أبا بكر كتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير الى العراق ، ويقال : بل وجهه من المدينة ، وأقبل خالد حتى أتى البصرة وفى رواية لزيد بن نبيشة العامري أنه قال : قدمنا العراق مع خالد بن الوليد فانتهينا الى مسلحة العذيب ، ثم أتينا الحيرة وقد تحصن أهلها فى القصر الأبيض(٣)

---

(١) الطبري (٢/٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤)
(٢) كتاب الخراج (ص ١٦٩) (٣) البلاذري (١٦٩ و ٢٠٥)

(٤) ذكر اليعقوبي أن أبا بكر أمر خالداً أن يسير الى العراق فسار ، ومعه المثنى ، حتى صار الى مدينة بانقيا [١]

(٥) ذكر ابن الأثير في تأريخه الكامل : « في هذه السنة (سنة ١٢) في المحرم منها ، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد ، وهو باليمامة ، يأمره بالمسير الى العراق ، وقيل : بل قدم المدينة من اليمامة ، فسيره أبو بكر الى العراق ، فسار حتى نزل بانقيا وباروسما وأليس [٢] »

(٦) ذكر ابن العبري أن خالداً توجه من اليمامة الى أرض العراق ، فزحف الى الحيرة ، ففتحها صلحاً ، وكان ذلك أول شيء افتتح من العراق

(٧) ذكر الذهبي أن خالداً سار بمن معه من اليمامة الى أرض البصرة ، فغزا دون الأبلة فافتتحها ، ودخل ميسان ، ثم سار نحو السواد [٣]

(٨) ذكر ياقوت في معجم البلدان في مادة البصرة : وكان سويد بن قطبة الذهلي في ناحية الخريبة من البصرة يغير على العجم ، كما كان المثنى بن حارثة يغير بناحية الحيرة فلما قدم خالد بن الوليد البصرة من اليمامة والبحرين مجتازاً الى الكوفة بالحيرة سنة اثنتي عشرة ، أعانه على حرب من هنالك وخلف سويداً ، ويقال : إن خالداً لم يرحل من البصرة حتى فتح الخريبة ، وكانت مسلحة للاعاجم ، وقتل وسبى ... وكان الواقدي ينكر أن خالداً مر بالبصرة ، ويقول : إنه حين فرغ من أمر اليمامة والبحرين ، قدم المدينة ، ثم سار منها الى العراق على طريق فيد والثعلبية [٤]

(٩) قال ابن خلدون : لما فرغ خالد من أمر اليمامة ، بعث اليه أبو بكر في سنة اثنتي عشرة ، فأمره بالمسير الى العراق وفرج الهند وهي الأبلة منتهى بحر فارس فسار من اليمامة وقيل : قدم على أبي بكر ، ثم سار من المدينة وانتهى الى قريات بالسواد ، وهي بانقيا وبرسوما وصاحبها جابان بن صلوبا ، فصالحهم على عشرة آلاف ، ثم سار خالد الى الحيرة

أجملنا فيما سبق الروايات الباحثة في سفر خالد من اليمامة الى العراق ويظهر منها أن

(١) اليعقوبي (١٠٩/١) (٢) ابن الأثير (١٤٧/٢)
(٣) الذهبي (٣٦٤/١) (٤) ياقوت

أكثرها تفيد أن خالداً توجه من اليمامة الى العراق ، دون أن يعرج على المدينة .

أما أبو يوسف ، فذكر أن خالداً ذهب من المدينة الى العراق

وأما الواقدي فذكر أن الروايات اختلف في أمر خالد ، فروي أنه مضى من وجهه ذلك من اليمامة . وروي أيضاً أنه قدم من المدينة وسار منها الى العراق

أما الرواة الذين اختلفوا في أمر خالد ، كالبلاذري وابن الأثير والذهبي ، فلعلهم اعتمدوا على ما رواه الواقدي من أمر الاختلاف في مسير خالد ، فاكتفوا باعادة قوله والأمر الواضح أن الرواة الأقدمين أجمعوا على أن خالداً مضى لوجهه من اليمامة الى العراق ومن رأينا أن هذا ينطبق على الواقع ؛ لأن خالداً اعتاد ألا يذهب الى المدينة الا حين الطلب ، وليس له فيها شغل وقائد كخالد يريد أن يبقى حراً في تصرفاته ويعمل بابداعه ، لا يميل الى الابتعاد عن جنده فقد ذهب خالد الى الحجاز مرة دون أن يطلب ، وذلك بعد أن فرغ من فتح العراق ، فسار يعتسف البلاد (كما جاء في الرواية) من غير علم الخليفة ، وذهب قبل هذا مرةً الى المدينة بطلب من الخليفة ليحاسبه على قتل مالك بن نويرة

ولعل الواقدي اعتمد على الروايات التي ذكرت مسير خالد الى الحج بعد فتح العراق ، وظن أنه ذهب الى المدينة بعد فتحه اليمامة ، كما ذهب الى الحجاز بعد فتحه العراق

في الواقع أن ذهاب خالد من اليمامة الى العراق ، أو عروجه على المدينة ثم ذهابه الى العراق ، لا يؤثر في حوادث العراق لو لم يفضل المستشرق الطلياني (ليونه كيتاني) رواية الواقدي على كل الروايات ويعتمد عليها في نقده لسير حركات خالد في العراق

لقد اعتمد (كيتاني) على رواية ابن اسحاق المقتضبة ، وعلى رواية الواقدي التي زعمت أن خالد بن الوليد رجع من اليمامة وسار منها الى العراق ، وأنكر جميع ما روي عن فتوحات خالد في أطراف البصرة وفي جنوبي الحيرة

أما نحن فنفضل تصديق الروايات التي ذكرت أن خالداً مضى لوجهه من اليمامة الى العراق

والآن ينبغي معرفة ما يأتي : أذهب خالد بوجهه الى أطراف البصرة ، أم ترك أطراف البصرة على يمينه وتوجه نحو الحيرة دون أن يمر بشاطئ الفرات ؟

روى الشعبي والمدائني وابن الـكلبي أن خالداً جعل طريقه البصرة ليبدأ بالأبلة فرج الهنـد كما كتب اليه أبو بكر ، وأيد سيف بن عمر والبلاذرىّ والذهبي ذلك ، وكذلك أشار ياقوت الى فتوحات خالد في أطراف البصرة ، ولكنه قال : إن الواقدي أنكر مرور خالد بالبصرة ، وادّعى أنه حين فرغ من اليمامة قدم المدينة ، ثم سار منها الى العراق على طريق فيد والثعلبية

أما ابن اسحاق وأبو يوسف والواقدىّ واليعقوبي وابن العبري ، فلا يشيرون الى فتوحات تمت في أطراف البصرة وعلى شواطيء الفرات ، ويجعلون وجهة خالد الحيرة فابن اسحاق واليعقوبي يذكران أن أول ما فتحه خالد قريتا بانقيا وباروسما أما أبو يوسف فيشير الى قتال وقع بين خالد والأعـداء في المنيشة والنجف وأليس ، قبـل فتح الحيرة وأما الواقدي وابن العبرىّ ، فيذكران أن أول فتح تم على يد خالد في العراق هو فتح الحيرة

اعتمد المستشرق الإيطالي (كيتاني) ، على عادته ، على روايات ابن اسحاق والواقدىّ المدنيـة ، وأنكر كل الفتوح التي تمت لخالد في أطراف البصرة وعلى شواطيء الفرات في جنوبي غربي الحيرة ، وزعم أن خالداً دخل الحيرة قادماً اليها من الشمال الشرقي وفي شرحه الجغرافي للأماكن ثبت بانقيا وباروسما وأليس في شمال شرقي الحيرة ، واعتد الروايات الباحثة فى قتال خالد في الأبلة والخريبة ونهر المرأة والولجة وغيرها من نسج الخيال ، وكذب روايات سيف بن عمر (١)

لقد نظر كيتاني الى الفتوحات التي تمت فى عهد أبي بكر نظرةً تختلف كثيراً عن نظارة المستشرقين الآخرين يرى كيتاني أن ما تم فى هذا العهد من الحركات ، لا يخرج عن نطاق غارات وغزوات تستهدف النهب والسلب دون أن يستند الى خطة مدبرة أو الى أوامر وتعليمات صدرت من المدينة وزعم أن خالداً فى حركاته أطراف الحيرة كان يسير على غرار عمل القبائل المتاخمة لأرض السـواد فى العراق ، وقد اعتادت هذه القبائل أن تشنّ الغارة على القرى فى غربي الفرات كلما سنحت لها الفرصة وكان الفرس فى هذا العهد فى حالة ضعف وتردد لانه

(١) كيتاني : حوليات الاســلام ــ الجزء الاول ، المجلد الثاني ، الفقرة ١٥٥ من حوادث السنة ١٢ للهجرة ، وما جاء في الهوامش

خسروا المعارك أمام جيوش هرقل الذي غزا بلادهم قبل بضع سنوات ، وأسترد منهم ما كانوا قد ضبطوه قبل من الممتلكات البيزنطية فى سورية والجزيرة وجنوبي الأناضول وبموت أردشير الثالث ملك الفرس سنة ٦٢٩ م أى سنة ثماني للهجرة بدأ عهد أضطراب وفوضى فى البلاط الساساني وانتهى سنة ٦٣٢م باعتلاء يزدجرد العرش الساساني وقد أستفادت قبائل بني بكر من هذه الفترة ، فأخذت تهاجم تخوم العراق ، وكانت قد تشجعت على ذلك بانتصارها على الفرس فى وقعة ذي قار

وبعد أن رأى كيتاني ذلك الرأي الخاطئ في حركات الجيوش العربية فى عهد أبي بكر ، وجه انتقاداته وملاحظاته من هذه الناحية وأعتمد على الروايات التي تلائم رأيه ذلك وتدعم أنتقاداته بالرغم من ضعفها بينما الروايات المدنية والكوفية ـ ما عدا رواية أبن إسحاق والواقدي ـ أجمعت على أن خالداً مر بأرض البصرة فى طريقه الى العراق ، وحارب الفرس فى أرض البصرة ، وقاتلهم في قرى الفرات فى جنوبي شرقي الحيرة وكان جهل كيتاني للأماكن التي جرى فيها القتال كالولجة وأليس ومجمع الأنهار وغيرها مما حمله على أن يتبنى ذلك الرأي الخاطئ.

وكان المستشرق الشلوسوفاكي ألويس موسل أول من سفه رأي كيتاني ، وأيد الروايات التي ذكرت فتوح خالد في جنوبي شرقي الحيرة ، وثبت المواقع التي جرى فيها القتال (١)

لسنا بصدد مناقشة رأي كيتاني فى ماهية الفتوح التي تمت في عهد أبي بكر ، فسنفرد لذلك بحثاً خاصاً

ولأجل أن نتبين الطريق التي سار فيها خالد ، يجدر بنا أن ندرج الروايات الباحثة فى ذلك (راجع خارطة طرق البادية)

(١) جاء فى رواية هشام بن الكلبي : أن أبا بكر كتب الى خالد ، وهو باليمامة ، أن يسير الى الشام أمره أن يبدأ بالعراق فيمر بها ، فأقبل خالد منها يسير حتى نزل النباج (٢)

(١) آلويس موسل : الفرات الأوسط A. Musil the middle Euphrates

(٢) الطبري (٢/٥٥٢ ، ٥٥٤ — ٥٥٥)

وفي رواية أخرى عن أبي مخنف أن خالداً نزل النباج ، والمثنى معسكر في خفّان

(٢) وفي رواية المغيرة بن شعبة ، وكان قاضي الكوفة ، أن خالداً فرق ، مخرجه من اليمامة الى العراق ، جنده ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحد ... الى أن قال : فواعدهم خالد (الحفير) ليجتمعوا به [١] ثم قال : فلما أتى الخبر خالداً بأن هرمز في الحفير ، أمال الناس الى كاظمة

(٣) وفي رواية للشعبي أن أول من لقي خالداً مَنْهبِطَهُ العراق هرمز بالكواظم ، ثم نزل الفرات بشاطىء دجلة ، ثم قال : أمّر خالد سويد بن مقرن المزني ، وأمَرَهُ بنزول الحفير

(٤) ذكر البلاذري أن أبا بكر كتب الى المثنى يأمره بأن ينضم الى خالد ، فيقيم معه اذا أقام ، ويشخص اذا شخص فلما نزل خالد النباج ، لقيه المثنى بها ، وأقبل خالد حتى أتى البصرة [٢]

(٥) وذكر الذهبي أن خالداً سار بمن معه من اليمامة الى أرض البصرة ، فغزا الأبلة فافتتحها ، ودخل ميسان ، ثم سار نحو السواد [٣]

يتضح من رواية ابن الكلبي وما ذكره البلاذري أن خالداً اتخذ النباج قاعدة حركته الى العراق أما رواية سيف بن عمر والمغيرة بن شعبة وما ذكره الذهبي ، فجميعها تشير الى مرور خالد بالنباج في طريقه الى أرض البصرة

لقد اعتمد كيتاني - كما بيّنا - على رواية ابن إسحاق والواقدي ، وجعل فيداً مبدأ حركة خالد الى العراق وذكر في إحدى ملاحظاته على الروايات في الهامش أنه اذا كان خالد وقف حقاً بالنباج ، فينبغي أنه وصل اليها من اليمامة ؛ لأنه كان المكان الذي يستطيع خالد فيه أن يتلقى أوامر الخليفة بسرعة قبل حركته ؛ لأن طريق (المدينة - البصرة) يمر بالنباج ورواية ابن الكلبي تؤيد ذلك وقال : إن خالداً ذهب بوجهه من النباج الى الحيرة بطريق فيد والثعلبية [٤]

(١) الطبري (٢/٥٥٢ ، ٥٥٤ — ٥٥٥) ،
(٢) فتوح البلدان (ص ٢٤٢) (٣) الذهبي ، (١/ ٣٧٤)
(٤) كيتاني : الملاحظة ٩ على الفقرة ١٥٥ لسنة ١٢ للهجرة ، الجزء الأول من المجلد الثاني ،

إن جهل كيتاني لموقع النباج جعله يقع في هذا الخطأ ؛ لأن النباج لا يقع على طريق (المدينة ـ البصرة) . ذكر ياقوت في معجمه : أن في بلاد العرب نباجين : أحدهما على طريق البصرة ، أي طريق (مكة ـ البصرة) يقال له نباج بني عامر ، ونباج آخر بين البصرة واليمامة وفي مادة (الصريف) تدليل على موقع النباج وذكر ياقوت أن الصريف موضع من النباج على عشرة أميال ، والنباج بين قو والصريف

وجاء أسم النباج في (خارطة الرياض) « مقياس واحد على مليون » بأسم (نبجية) ، ويقع في شمال شرقي بريدة على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً والى جنوبي شرقي الصريف . وثبت (موسل) في خارطته التي وضعها في سياحاته في بادية الشام وشمالي نجد موضع النباج بأسم النبجية ؛ والنباج هذا يقع الى شرقي جنوبي فيد على بعد عشرين ومئتي كيلو متر ، والقادم من اليمامة اذا كانت وجهته أرض البصرة ، لا بد له أن يمر بالنباج ، وكذلك القادم من مكة الى البصرة يمر بها بعد أن يمر ببريدة ؛ بينما تقع فيد على طريق (المدينة ـ الحيرة) ، والذي يشخص من المدينة يعرج من فيد على بريدة ، ويذهب منها الى البصرة من طريق الحفير الذي ورد أسمه في الخارطة المذكورة باسم الحفر ، وهو واقع في بطن وادي الرمة في منتصف طريق (بريدة ـ البصرة) أما الثعلبية ، فواقعة على طريق (فيد ـ الكوفة) شمالي شرقي فيد على بعد ثمانين ومئة كيلو متر

ويظهر من تثبيت المواقع المذكورة على الخارطة أن الروايات التي ذكرت وقوف خالد بالنباج بعد شخوصه من اليمامة واجتماع فرقه بالحفير وشخوصه منه الى كاظمة ، روايات كان رواتها يعرفون جغرافيا البلاد معرفة صحيحة ، وكاظمة موضع في منتهى خليج الكويت على بعد عشرين كيلو متراً شمالي شرقي (الجهرة) ذكر ياقوت أن كاظمة جو على سيف البحر في طريق البحرين ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وماؤها مشروب .

وإذ أجمعت الروايات على أن خالداً سار من اليمامة لوجهه يريد العراق ، وأن رواية الواقدي لم تجزم بسفر خالد من المدينة الى العراق إنما أشارت الى من قال بذلك ، فلا بد لخالد أن يمر بالنباج اذا أراد العراق وقد أشارت بعض الروايات الى وقوف خالد في النباج ، واجتماع المثنى

به بالنباج والطريق الأقصر الذي يربط اليمامة بالعراق يمر بالنباج ، ولا يوجد طريق آخر بين اليمامة والعراق يمر بغير النباج ، الا اذا عرج المسافر على زبدة ، ومنها على فيد ، ومنه الى الحيرة ولكن المسافر اذا سلك هذا الطريق يكون قد قام بالتفافة كبيرة يبلغ طولها أكثر من ثلاث مئة كيلو متر ، هو في غنى عنها ، اذا أراد الحركة من اليمامة والتوجه الى العراق لهذا نرى أن ملاحظات كيتاني على حركة خالد في العراق غير صحيحة ، وقد تسلطت عليه فكرة سابقة وظل تحت تأثيرها في نقده لحركات خالد ، وظل متمسكاً برأيه أن خالداً لم يمر بأرض البصرة ، ولم تتم له فتوح ، وأنه سار من فيد والثعلبية الى الحيرة وحجته في ذلك أن أوثق رواة المدينة ـ ابن إسحاق والواقدى ـ لم يشيرا الى قتال وقع في نواح أخرى ، وأن ابن نبيشة أحد رواة البلاذرى الذى رافق خالداً في غزوه للعراق ذكر أنهم انتهوا الى مسلحة العُذَيب ، ثم أتوا الحيرة بينما هذه الروايات التي استند اليها كيتاني لا تدل دلالة صريحة على أن خالداً لم يمر بأرض البصرة ، ولم يقاتل الفرس على ضفاف الفرات ، لأن ابن اسحاق اكتفى بالقول إن خالداً نزل بقريات من السواد يقال لها بانقيا وباروسما وأليس وقال الواقدى : إن خالداً سار الى العراق على طريق الكوفة حتى انتهى الى الحيرة ان مجرد نزول خالد بقريات من السواد ، أو مسيره على طريق الكوفة وانتهائه الى الحيرة ، لا يدل على أنه لم يمر بأماكن أخرى ، ولم يقاتل الفرس فيها قبل نزوله قريات السواد ، كما أن رواية وصول خالد الى مسلحة العُذَيب ومجيئه الى الحيرة فضلا عن أنها قد تخص سفر سعد بن أبي وقاص ، لا تدل على أنه لم يقم بأعمال أخرى قبل وصوله الى العُذَيب وفي الواقع أننا اذا ثبتنا مواضع بانقيا وباروسما وأليس ، وعلمنا أن العُذَيب في جنوبي الحيرة ، وقد نزل به سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية ، ولاحظنا أن الرواة الآخرين لم يذكروا العذيب في حروب خالد ، جاز لنا أن نذهب الى أن خالد بن الوليد أتى الحيرة من طريق البصرة وأنه افتتح في طريقه قرى في أطراف الفرات صلحاً بالاتفاق مع أهلها ، أو احتلها عنوة بعد أن قاتل أهلها والمرابطين فيها من الفرس

واذا كان خالد ذهب من اليمامة لوجهه الى العراق ، ومر بالنباج كما بينا ، وأمره أبو بكر بأن يبدأ بفرج الهند الأبلة كما أشارت الى ذلك أكثر الروايات، فلا بد له اذن من أن يمر بأرض

البصرة ؛ لأن طريق النباج يقود المسافر الى البصرة ، لا الحيرة وإذا أراد المسافر أن يذهب من اليمامة الى الحيرة ، فينبغي له أن يتوجه الى بريدة ، ومنها الى فيد ، ومنه الى الثعلبية فالقرعاء فالعذيب حتى ينتهي الى الحيرة لهذا لا يوجد سبب ما لإنكار الروايات الباحثة في قتال خالد في أطراف البصرة ، وذهابه الى الحيرة بطريق الفرات ماراً بالولجة وقد ثبت موسل موضع الولجة في (عين ضاحك) على ضفة الفرات اليمنى جنوبي شرقي الشنافية على بعد خمسة عشر كيلو متراً ، والقادم من أطراف البصرة متوجهاً نحو الحيرة يمر بالولجة ، ثم بخفان حتى ينتهي الى الحيرة[1]

جغرافيا العراق في أوائل الفتح العربي (راجع خارطة أرض السواد) :

ولأجل معرفة الأماكن التي مر بها خالد بن الوليد ، يحسن بيان جغرافيا العراق قبيل الفتح العربي ومن العسير معرفة أماكن العراق معرفة تامة في زمن الفتح ، وسبب ذلك أن الفرات غيّر مجراه مرات عديدة منذ زمن الفتح ، وقد اندرست جداول عدة ، وشقت جداول أخرى حتى إن جغرافيا العراق في العهد العباسي تختلف بعض الاختلاف عنها في زمن الفتح ؛ لهذا نجد صورته التي وضعها جغرافيو العرب كاليعقوبي والمقدسي وابن خرداذبه وابن رسته والإصطخري وابن سرابيون ، لا تنطبق على صورة العراق في زمن الفتح وسنفرد لجغرافيا العراق في زمن الفتح بحثاً خاصاً ونكتفي الآن بذكر الأوصاف الأرضية للعراق في الأماكن التي مر بها خالد بن الوليد

يظهر مما كتبه البلاذري [2] أن نهر دجلة كان بعد السكوت في مجراه الحالي ، وكان يصب في دجلة البصرة ، أي شط العرب الحالي ، وكان يسمى دجلة العوراء ولكن حدث في زمن قباذ بن فيروز الذي حكم في نهاية القرن الخامس بثق عظيم في أسافل كسكر ، أي منطقة الحي

(١) أخبرنا أحد القادمين من الكويت أن أهل الكويت ما يزالون يذكرون مرور خالد بن الوليد بـ (الجهرة) في طريقه الى كاظمة وتقع الجهرة جنوبي غربي كاظمة على بعد ثمانية كيلو مترات ، وهي في منتهى خليج الكويت الى الغرب على طريق الكويت ــ البصرة

(٢) فتوح البلدان . ص ٢٩٠

والرفاعي الحالية ، أهمل سده ، فغرق كثير من الأرَضِينَ العامرة ولما تولى كسرى أنوشروان الذى حكم بلاد فارس فى منتصف القرن السادس ، أمر بردم ذلك البثق وفى السنة السابعة الهجرية زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة ، وانبثقت بثوق عظام ، فحاول أبرويز أن يسدها فلم يستطع ، فطغى الماء على العمارات والزروع وغمر مساحة عظيمة من الأرضين ، وكوّن البطائح والبطائح أرض مغمورة بالمياه كالأهوار الحالية فى جنوب العراق مثل هور الحمّار وهور الحويزة وغيرها وتبدأ أرض البطائح شمالاً من جنوبي شرقي الحيرة ، وتمتد جنوباً الى أرض البصرة ، ويحدها غرباً السهل المرتفع الموازي لنهر الفرات ، ويحدها شرقاً فرع دجلة الذى يجري وسط كسكر ويصب فى البطائح نفسها ، وهي عبارة عن بحيرة واسعة بعضها ضحل ، ولعل هور الحمّار الحالي هو بقايا البطائح

وانقطع الماء فى فرع دجلة الأصلي ، أي نهر العمارة ، على أثر البثوق ، وأخذ الفرات وفروعه يصب رأساً فى البطائح جنوبي غربي الحيرة ، وأصبح المجرى الأصلي لدجلة تمتد جنوباً بعد الكوت ويحاذي البطائح من ناحية الشرق ويصب فى البطائح نفسها وماء البطائح يجري فى شعب عدة نحو الشرق ، تلتقي بمجرى دجلة القديم جنوبي العمارة فيتكون منها دجلة العوراء التي تصب فى البحر فى جوار الأبلة ، وهي فرضة العراق وواقعة الى شمالي شرقي البصرة على بعد نحو من عشرين كيلو متراً ، ويأخذ نهر الأبلّة الماء من دجلة العوراء ويصبه باتجاه أرض البصرة

والذى يفهم من ذلك أن القرى الحالية ، الفيصلية والشنافية والرميثة والشامية والديوانية والدغارة وعفك والناصرية والشطرة وسوق الشيوخ وما جاورها من الأرض جميعها كانت من البطائح ؛ وكانت مدينة (نفر) فى الحد الشمالي للبطائح ، وكانت مدينة (زندورد) فى أرض كسكر ، أي المنطقة بين الحي والرفاعي ، وقد شيدت مدينة (واسط) بعد ذلك من أنقاضها ، وكانت قرية (المذار) فى منطقة ميسان واقعة على ضفة دجلة العوراء اليمنى فى قسمها الشمالي فى جوار قلعة صالح وكانت جداول عدة تأخذ الماء من دجلة العوراء وتصبه في أرض البصرة في الاتجاه الجنوبي الغربي ، ونهر الأبلة ونهر المرأة من جملتها وكانت الخريبة مسلحة للفرس ، وهي واقعة في أطراف مدينة الزبير

أما في وسط العراق ، أي المنطقة التي يقرب فيها نهر دجلة من نهر الفرات وفيها عاصمة الفرس الصيفية (المدائن) ، وفيها شيدت فيما بعد مدينة الكوفة ومدينة بغداد ، فكانت تشبه بأوصافها أوصاف أرضها الحالية ، ما عدا الجداول التي تأخذ الماء من ضفة الفرات اليسرى وتصبه في اتجاه دجلة ، وكذلك الجداول الأخرى التي تأخذ الماء من ضفته اليمنى وتمتد موازيةً له أو متباعدة عنه وقد غيرت هذه الجداول مجراها مراتٍ مما أصابها من إهمال وما تراكم فيها من طمي سد صدورها وحال دون وصول الماء اليها

ومن الفائدة أن نثبت ، باختصار وبصورة تقريبية ، الأماكن التي ورد أسمها في فتوحات خالد ، ليسهل على القارئ متابعة سير الفتوح ، ونبدأ بذكر المواقع المذكورة من الجنوب ، من أطراف البصرة ، مصعدين الى الشمال باتجاه البطائح

كانت الأبلة ـ كما بيّنا من قبل ـ فرضة العراق أو فرج الهند كما ورد ذلك في كتب الفتوح ، وكانت واقعة في منتهى خليج البصرة ، على الضفة اليمنى من دجلة العوراء ، أي وسط شط العرب ، ولم يكن شط العرب قد أمتد يومئذٍ الى الفاو بتأثير رواسب الطمي التي تجرفها مياه الأنهار الى البحر . وشيدت الأبلة في العهد السلوقي في ملتقى دجلة العوراء بخليج البصرة ، بأسم (أبولو) المعبود اليوناني ، وصرف العرب لفظة (أبولو) الى الأبلة ولم تكن قرية عبادان موجودة يومئذٍ ولعل أرضها كانت ما تزال في جوف البحر وكانت الأبلة في زمن الفتح قد أبتعدت عن البحر قليلا بتأثير رواسب الطمي

وكان الطريق الذي يربط البصرة بالحيرة يمر بخَفّان ، ولا بد للمسافر أن يمر به اذا أراد الحيرة ومن خَفّان يتشعب طريق بالاتجاه الجنوبي الغربي الى فيد ذكر ياقوت أن خفان موضع قريب من الكوفة يسلكه الحاج أحياناً ، وهو مأسدة ، قيل هو فوق القادسية ، وفيها عين ماء جارية وقد ثبتها موسل في خارطته بقرية (القائم) الحالية الواقعة الى غربي جنوبي غربي الشنافية على بعد خمسة كيلو مترات ، وورد أسمها في خارطة البصرة (مقياس واحد على مليون طبع سنة ١٩٤٤ م) باسم قوام بدلاً من القائم ولما كانت القرية على سيف البادية ، فلم تكن تصل اليها مياه الفيضان وقد اتخذها الفرس مسلحة لمراقبة القبائل العربية والدفاع عن

مزارع السواد وإذا ما تقدم المسافر من خفـان متوجهاً الى الحيرة ومال الى شاطئ الفرات ، فإنه يمر بالولجة ذكر ياقوت أن (الولجة) بأرض كسكر ، وقال : إنها موضع مما يلي البر ، واقع فيها خالد جيش الفرس سنة اثنتي عشرة للهجرة ويتبين من خبر القتال فيها أنها كانت بعيدة عن شاطئ الفرات ، ولعلها كانت هي أيضاً مسلحة من مسالح الفرس وثبتها موسل في خارطته بـ (عين الضاحك) ، وهو واقع جنوبي جنوبي غربي الشنافية على بعد عشرة كيلومترات وجاء فى أخبار الفتوح : أن العرب بعد انتصارهم على الفرس فى الولجة ، قاتلوهم فى موضع أُلَّـيْس اقتصر ياقوت على القول انها التي كانت فيها الواقعة بين المسلمين والفرس فى أول أرض العراق ، من ناحية البادية وفى كتاب الفتوح : أُلَّـيْس قرية من قرى الأنبار . وقال فيها الطبري : إنها فى صلب الفرات واستند كيتاني الى قول ولديكه : إن أليس عرفة من كلمة (ولوجسياس ـ Vologesias أو Volocesia أو Velgasis) اليونانية واستناداً الى ذلك ادعى أن خالد بن الوليد هاجم الحيرة من الاتجاه الشمالي ، لأن ولوجسياس بحسب زعمه واقعة على قناة (بالاكوباس أو باللاكا أوبا أو نهرأبا) بينما يظهر من أبحاث الجغرافيين والمؤرخين القدماء اليونان والرومان أن مدينة (ولوجسياس أو فولجيسيا) واقعة على نهر الفرات جنوبي مصب نهر الملكا القديم الذى كان يأخذ المياه من الفرات ويصبها بالاتجاه الشرقى فى أرض المدائن وقد ثبتها موسل باسم (بترة) وهي واقعة جنوبي غربي الفلوجة على بعد خمسة وثلاثين كيلو متراً ولكن أخبار الفتوح تدل على أن قتال أُلَّـيْس جرى بعد قتال الولجة وقبل أمغيشيا حيث ينتهي اليها فرات بادقلى وجرى بعد ذلك قتال بين العرب والفرس على فم نهر العتيق ، ولاسيما خبر سد النهر وقطع المياه عنه كل ذلك يدل على أن ألّـيس فى جنوبي الحيرة لا فى شمالها وثبت موسل موضع ألّـيس فى قرية الشاطئ الواقعة على ضفة الفرات اليمنى شمالي غربي الشنافية على بعد خمسة كيلو مترات وذكر ياقوت أنها كانت من مسالح (أمغيشيا)

ذكر ياقوت أن أمغيشيا موضع بالعراق كانت فيه وقعة بين المسلمين وأميرهم خالد وبين الفرس فلما ملكها المسلمون ، أمر خالد بهدمها ، وكانت مصراً كالحيرة ، وكان فرات بادقلى ينتهي اليها ، وكانت ألّـيس من مسالحها ومما يلفت النظر أن جغرافيي العرب لم يشيروا الى اسم أمغيشيا ،

وانما ذكروا المغيثة ، وهي في البادية على طريق الكوفة ويظهر من ذلك أن مدينة أمغيشيا قد اندرت في عهدهم ويتبين من أخبار القتال بين أليس والحيرة أنها كانت في جنوبي شرقي الحيرة وفي رواية أثبتها ياقوت في معجم البلدان في مادة (جرعة) أن خالداً لما قدم العراق نزل بالجرعة بين النجفة والحيرة ، وقال ياقوت : انها موضع بالكوفة ، ووصفها بأنها المكان الذي فيه سهولة ورمل ويظهر من وصف ياقوت أنها ليست القرعاء أو الجرعاء في طريق (فيد ـ الحيرة) الواقعة في البادية جنوبي المغيثة ينزل بها الحاج في طريقهم من الكوفة الى المدينة والواضح من الرواية أن خالداً مر بها قبل دخوله الحيرة ، لأنها ـ كما ذكر ـ قرب الكوفة والنجفة الواردة في الروايات هي النجف ، أي الأرض المرتفعة التي بنيت فيها الحيرة وقصر الخورنق وقصر صنبزناباد ، وهي تسيطر شرقاً على ضفاف الفرات ، وغرباً على بحيرة النجف بمنحدرات صخرية تحيط بالبحيرة من الشرق والشمال لا يستبعد أنها الجمّارة الحالية ، وذلك بتحريف الجرعة الى الجمارة

وذكر موسل أن مجمع الأنهار الوارد ذكره في القتال الذي جرى بعد معركة أليس، ينبغي التفتيش عنه بين أبي صخير والجعارة ؛ لأن نهر العتيق كان يأخذ الماء من الفرات ، في هذا الموضع . وفي رواية رواها الطبري عن سيف بن عمر أن خالداً قصد الحيرة بعد مقاتلته للفرس في مجمع الأنهار ، ونزل بين الخورنق والنجف[١] والخورنق مكانه ما يزال ظاهراً في الحافة الصخرية التي تحيط ببحر النجف من جهة الجنوب الشرقي ، شمالي غربي أبي صخير بمسافة اثني عشر كيلو متراً ، ولم يبق من بنائه شي ، فيه ركام من الآجر والحجر ، واذا ما أجريت فيه حفريات فقد تكشف آساسه ويقع قصر الصنين الذي ورد ذكره في فتوح سعد بن أبي وقاص ، جنوبي غربي الخورنق على بعد عشرة كيلو مترات ، وقال ياقوت فيه : إنه كان بظاهر الكوفة ، وبه نهر ومزارع وما يزال أثره ظاهراً

والذي نستنبطه من هذا البحث الجغرافي الموجز ، أن خالد بن الوليد شخص من اليمامة الى النباج فبقي فيه مدة قصيرة ، ثم توجه الى كاظمة وهي واقعة في منتهى خليج الكويت ولعلها

(١) الطبري (١/٥٦٧) .

كانت يومئذ فرضة ، ثم عرج على الأبلة ، ثم سار الى الخريبة ومر بنهر المرأة ويلوح لنا أن دجلة العوراء والأنهر الكثيرة التي تجر الماء من البطائح وتصبها في دجلة العوراء ، قد حالت دون دخوله في منطقة ميسان ثم توجه الى الحيرة على سيف البادية فشن الغارات على المسالح الفارسية ، وأوغل في ضفاف الفرات ، وقاتل الفرس في الولجة وأليس وأمغيشيا ومجمع الأنهار ، ثم مر بالخورنق وانتهى الى الحيرة وفي سيف البادية الذي يسيطر على أطراف الفرات وقراه ومزارعه ، انتشرت عيون المياه ؛ لأن مياه الأمطار التي تجرى في الأودية المنصبة في سهل الفرات ، تغور في هذه الأودية ، وتظهر هنا وهناك عيوناً جارية ، وهي كثيرة في هذا السيف وفي الروابي المسيطرة على منخفض بحر النجف

والطريق الثاني الذي يربط البادية بالعراق ، هو طريق المدينة ـ الحيرة ، وقد سلكه سعد ابن أبي وقاص في سفره الى العراق وهذا الطريق يمر بفيد والثعلبية فزبالة ، فواقصة ، فالمغيثة ، فالعذيب ، فالقادسية حتى ينتهي الى الحيرة وبعد المغيثة كلما أمتد الطريق نحو الحيرة ، كثرت فيه عيون المياه ؛ فعذيب الهجانات والعذيب أو عذيب القوادس فيهما ماءٌ جارٍ ، وفي المغيثة بِرَكٌ تجتمع فيها مياه الأمطار ، وفي القرعاء آبار أما عذيب الهجانات فواقعة على عين النجارية الحالية ، والعذيب في الرحبة الحالية . والقادسية لم يبق من آثارها الا ركام من الآجر والحجارة ، والمسافة بين العذيب (الرحبة) والقادسية زهاء خمسة كيلو مترات أما الحيرة فواقعة الى جنوبي الكوفة بالمسافة نفسها ، وكانت مبنية في سهل منبسط ، تسيطر على ضفة الفرات اليمنى في الشرق وعلى منخفض النجف في الغرب . وأما آثارها الباقيه فعبارة عن تلال منتشرة هنا وهناك .

وكانت مدينة الحيرة في زمن الفتح العربي مجموعة مبان محصنة ، تفصلها بساتين ومزارع ، وكانت كل مجموعة منها تسمى قصراً ، وهو على شكل مستطيل وسطه فِناء واسع ، محيط به بنايات منفردة وكانت الجدران الخارجية لهذه القصور أعلى من الجدران الداخلية ، وفي الجدار الخارجي باب حصين يقود الى الفناء ، ومنه الى المباني وحجم القصر يختلف باختلاف الساكنين فيه وهم يكونون في الأغلب عدة أُسَرٍ من فخذ واحد واذا أخبر الخفراء من أرصاد وعيون أن العدو قادم ، يسدون الأبواب ، ويقاومونه من الفتحات في السور الخارجي وكانت

الحيرة تستقي الماء من الفرات بجدول يأخذ الماء من شمالي الحيرة ويجري باتجاه الجنوب موازياً للفرات وما يزال أثر هذا الجدول موجوداً يسميه الأهلون (كَـرِي سِـعْدَة)

ومجمع الأنهار الذي ورد ذكره في الفتوح ، واقع بين الحمّارة وأبي صخير وذكر الطبري أنه مجمع الأنهار نهر الحيرة ونهر السيلحين ونهر القادسية ونهر يُرْسُف[1] وقد أخطأ الطبري بذكره نهر الحيرة ؛ لأن النهر الذي يأخذ الماء من الفرات بين الجمارة وأبي صخير ، لا يمكن أن يجري في أرض الحيرة ؛ لأنها مرتفعة أما الأنهار الأخرى فتأخذ الماء من الفرات في المجمع وتصبه في الاتجاه الشمالي الغربي نحو منخفض النجف أو الى الجنوبي الغربي ، وما تزال امتدادات الجداول الحالية في هذين الاتجاهين ويظهر من أخبار الفتوح أن نهر السيلحين كان يسقي قصر صنين ومزارعه

وجاء في رواية ابن اسحاق أن خالداً في طريقه الى العراق نزل بقريات من السواد يقال لها بانقيا وباروسما وألّـيس وقد أيد اليعقوبي وصول خالد الى بانقيا وذكر ياقوت أن بانقيا ناحية من نواحي الـكوفة ، وأورد رواية الشعبي أن خالداً سار من الحيرة حتى نزل بصلوبا صاحب بانقيا وسما (باروسما) ومن الصعب تثبيت محلها ، إلا أنها ينبغي أن تكون على الفرات في شمالي الحيرة ؛ لأن أخبار الفتح الموثوقة أجمعت على أن خالداً ذهب اليها بعد فتح الحيرة ، ولم يذكرها جغرافيو العرب ، وذلك يدل على أنها اندرست في زمنهم أما (باروسما أو بارُسما أو سما) فتدل أخبار الفتح على أنها واقعة بجوار بانقيا ، وكانت هي وبانقيا وما جاورها من ضياع ابن صلوبا ، ذكرها جغرافيو العرب وجعلوها من طسوج بهقباذ الأوسط ، كما جعلوا سورا وجُـبة والبداة أيضاً من طسوج هذا الاستان، ويستدلّ من أخبار الفتوح أن باروسما كانت في الضفة اليسرى من الفرات

وبديهي أن الحيرة كانت مرتبطة بالمدائن ، العاصمة الصيفية لملوك ساسان ، بطريق يقطع الفرات فوق جسر ، والجسر هذا ينبغي أن يكون الى شمالي شرقي الحيرة ، ولعله كان في المكان الذي ذكره جغرافيو العرب باسم قناطر الـكوفة ، ولا يمكن تثبيت مكانه بالضبط ويجوز أنه

(١) الطبري (٤/٥٦٢)

كان واقعاً الى شرقي النخيلة ، أي (خان النخيلة) الحالي الواقع على طريق كربلاء ـ النجف جنوبي شرقي كربلاء . وبعد أن فتح خالد الحيرة ، سار الى الأنبار جاعلاً نهر الفرات على يمينه وفي الحق أن خالد بن الوليد قصر حركاته في الضفة اليمنى ، ولم يجتز الفرات بقوته ، ولكن بعض رجاله اجتازوا الفرات للإغارة أما (قيساثا) أو (قس الناطف) التي صالح ابن صلوبا خالداً عليها ، فكانت في الضفة اليسرى من الفرات وذكر البلاذري أن أهل بانقيا ساعدوا أبا عبيد الذي تولى القيادة بعد سفر خالد الى الشام ، ساعدوه على نصب الجسر ، وذكر أنه يقال إن الجسر قديم لأهل الحيرة يعبرون عليه الى ضياعهم والذى نستنتجه من بحثنا أن بانقيا وباروسما أو سما قريتان واقعتان جنوبي قس الناطف : الأولى على الضفة اليمنى ، والثانية على الضفة اليسرى

ولم يذكر الأخباريون أحداثاً أخرى بعد مصالحة خالد لصلوبا ، إنما يشيرون الى حوادث وقعت في الأنبار ، وذلك يدل على أنه لم تجر حوادث تستدعي الذكر بين الحيرة والأنبار ويتراءى لنا أن خالداً ترك شاطئ الفرات بعد صلح صلوبا ، وسلك الطريق البري متوجهاً الى الأنبار وهذا الطريق يمر بـ (دير الجماجم) و (دير قرة) ، وينتهي بالأنبار ولعل طريق عين التمر ـ الأنبار يلتقي به في دير الجماجم وورد ذكر هذا الدير في الحوادث التي جرت في القرن الأول الهجري ، وثبته موسل في جوار كربلاء

وكانت (الأنبار) مدينة عظيمة للفرس ، كانت تسمى (فيروز سابور) كما ذكر ياقوت وهي من الحصون الفارسية الأمامية التي تسد وادي الفرات بوجه الجيوش الزاحفة نحو الجنوب ، وما تزال خرائبها ظاهرة في شمالي الفلوجة على الضفة اليسرى ، وكانت فيها قلعة ، وينبغي أن يكون فيها جسر تعبره القوافل القادمة من الشام وكان لها حصن في الضفة اليمنى بمثابة رأس جسر ويتبين من أخبار الفتوح أن خالداً بعد وقعة الأنهار ظل في الضفة اليمنى ، عبرت بعض قواته الفرات ، وأغارت على سوق بغداد ، ثم عادت الى الأنبار

وذكر البلاذري أن سوق بغداد هي السوق العتيقة التي كانت عند قرن الصراة وذكر ياقوت أنها قرية تقوم فيها سوق عظيمة في كل شهر يأتيها تجار فارس والأهواز والقرية هذه

واقعة على الضفة اليمنى من نهر دجلة بين فم قناة الصراة وقناة الرفيل ، ثبتها الدكتور أحمد سوسة في أطلسه لمدينة بغداد

وورد ذكر (البوازيج) في غزوة خالد للأنبار ، ويلوح أن البازوج لا يدل على مكان معين ، بل هو وصف لأرض ما ، ولعلها كانت قبالة فم نهر الرفيل

وأما (عين التمر) التي افتتحها خالد بعد غزوه للأنبار ، فتقع في أطراف (شفاثا) أو (شثاثة) كما يذكرها الأهلون ، والعين على بعد اثني عشر كيلو متراً شمالي غربي قرية شفاثا

وأما قصر مقاتل ، فهو واقع بين شفاثا والرحالية ، على بعد أحد عشر كيلو متراً شمالي القرية ، وقد سمي (قصر بَردِول) كناية عن القصور التي شيدها الصليبيون في سورية ، كقصر (بلدرين) ، والأهلون يسمونه الآن قصر شمعون

ولما نكث أهل الأنبار بعد ذهاب خالد الى عين التمر ، عاد خالد الى الأنبار ومر بطريقه بصندوداء و (صندوداء) هذه هي (المشهد) أو (المشيهد) الحالية الواقعة الى شرقي الرمادي ، وذكر ابن منقذ أنها كانت ضاحية من ضواحي الأنبار

(الخندق) أو (خندق سابور) : لقد ورد ذكر الخندق في أخبار الفتوح ، وقد أشار اليه البلاذري وسماه خندق سابور الذي حفره بينه وبين العرب الموكلين بمسالح الخندق [1] ، وذكره ياقوت في معجم البلدان أيضاً ، وقال : ان خندق سابور في برية الكوفة ، حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من شرهم وزعموا أن الخندق يبدأ من هيت ، يشق طنف البادية الى كاظمة وينفذ الى البحر وقال : انه بنى عليه المناظر والجواسق ، ونظم بالمسالح ليكون ذلك مانعاً لأهل البادية والواضح من ذلك أن ملوك فارس حفروا هذا الخندق ليأمنوا شر غارات أهل البادية على قرى أهل السواد الواقعة الى شرقي الفرات أصحيح أن فم الخندق يبدأ في جوار هيت ؟ وهل من فائدة في حفر هذا الخندق طرف هيت ؟ واذا صح وجود الخندق ينبغي أن يكون فمه في الجنوب ، أي المكان الذي تبدأ فيه الأرض السهلة المنبسطة ، أرض السواد وفي الحق أن آثار الخندق ترى في الجنوب من جنوبي النخيلة الى غربي الكوفة

(١) البلاذري (ص ٢٩٦)

موازية للفرات ، والأثر هذا ظاهر غربي المكان الذى شيدت فيه الحيرة ، ممتد الى شرق المكان الذى أقيم فيه قصر الخورنق ، وينعطف بعد ذلك الى الغرب فيتصل بالأرض المنخفضة بين أبي صخير وبحر النجف وقد أطلق عليه اسم (كري سعدة) وهناك أثر جدول جنوبي شرقي هيت تمتد موازياً ضفة الفرات ومتباعدا عنها ، يسمى كري سعدة أيضاً وجاء فى أخبار الفتوح أن خندقاً كان يحمى القادسية وكانت عليه قنطرة وقيل : إن القادسية بين العتيق والخندق . ويذكر رجال من قبيلة بني أسد الساكنة أطراف هور الحمار أن أثر كري سعدة يشاهد فى أطراف (النبيشية) الواقعة الى شمالي غربي البصرة هل لهذه الآثار اتصال بالخندق المزعوم ؟ من العسير أن يصدق المرء وجود خندق متصل يبدأ من هيت وينتهي فى كاظمة ولا شك فى أن مزارع السواد وقراه الواقعة فى الضفة اليمنى للفرات فى حاجة الى خندق يحميها من إغارات القبائل . ومن السهل حماية هذه القرى بجداول تستقي الماء من الفرات مباشرة ، أو من أنهاره ولكن الصعوبة تنجم من حفر خندق متصل يربط المخافر الأمامية الواقعة على شفير البادية كعين التمر والقادسية والعذيب وخفان والولجة والخريبة وكاظمة ، وكانت هذه المواقع مخافر أمامية للفرس ، أقاموا فيها حاميات من العرب والفرس حيثما كان الموقف يساعدهم على ذلك ولهذا نستبعد وجود خندق متصل يبدأ من هيت وينتهي فى كاظمة والخندق هذا لا يحول دون غزو العرب إلا اذا كان عريضاً وعميقاً ، ولا بد أن يكون فى وضع يتيسر معه صب المياه فيه وفى الواقع أن الأنهار والقنوات تكون بحد ذاتها موانع طبيعية تحول دون الغارات

الموقف العام قبل البدء بالحركات : سبق أن أشرنا الى أن خالد بن الوليد توجه من اليمامة الى العراق ، وأنه وقف بالنباج ولما كان هدفه الأبلة فرج الهند كما أمره أبو بكر ، كان لا بد له من أن يقيم بالنباج مدة يتسقط الأخبار عن الفرس ليعرف موقفهم فى العراق ومقدار قوتهم فى أطراف البصرة وفى الروايات ما تذكر أن المثنى بن حارثة الشيباني لقي خالداً بالنباج . ومن الطبيعي أنه أطلعه على أخبار العراق فى هذا الاجتماع والروايات تشير الى أن المثنى قدم على أبي بكر ، وطلب اليه أن يستعمله على مقاتلة الأعاجم

س أهل فارس ، فكتب له أبو بكر عهداً في ذلك[1] وكان المثنى رئيساً من رؤساء قبائل بكر بن وائل ، وكان « غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد » بهذا الوصف قدمه قيس بن عاصم بن سنان المنقري الى أبي بكر

ويظهر مما ذكره ابن حبيش استناداً الى رواية عمر بن شبة : « أن المثنى كان كثيراً ما يغزو الأعاجم في السواد وقد وصل خبره الى أبي بكر ، فسأل عنه عمر ، وعلم من قيس ابن عاصم أنه غير مجهول النسب وقدم المثنى على أبي بكر ، وطلب اليه أن يستعمله على قومه الذين أسلموا لمقاتلة الأعاجم ، فلبى أبو بكر طلبه وذهب المثنى الى العراق ، وحارب الأعاجم وأهل السواد سنة ، ثم أوفد أخاه مسعود بن حارثة الى أبي بكر يستنجده ، فبلغ أخوه رسالة أخيه قائلا ما معناه : « اذا أنجد الخليفة أخاه ، وعلمت العرب ذلك ، فانهم يسارعون في الانضمام اليه ، وسيخزي الله المشركين » وقال : « إعلم يا خليفة رسول الله أن الأعاجم يهابوننا » وعلى أثر ذلك أوصى عمر أبا بكر بارسال خالد بن الوليد مدداً للمثنى ، وبهذا يصبح خالد قريباً من المسلمين المحاربين في الشام ولو لم يحتج المسلمون اليه في الشام ، لمكث خالد في العراق حتى يتم الله نصره هذا هو السبب الذي دعا أبا بكر لارسال خالد الى العراق[2]

إن البلاد التي صال خالد وجال فيها ، كانت القبائل العربية تسكن في باديتها أما أرض السواد ، فكان يسكنها أهلها الأقدمون ، وهم خليط من الكلدان والسريان والأراميين ، أطلق العرب عليهم اسم (الأنباط) ، وكانت الأكثرية الساحقة منهم نصرانية منذ قرون ، والسواد منقسم من الوجهة الادارية الى اثنتي عشرة كورة ، و (الكورة) تسمى (أستان) ، والأستان منقسم الى (طسوج) ، والأستان كما ترجمها ابن خرداذبه (اجازة) وترجم الطسوج بناحية ، وفي السواد ستون طسوجاً وكانت الكورة تدار من قبل حكام من الفرس وفي أرض السواد مزارع واسعة تملكها الدهاقنة من الفرس ومن الأنباط و (ابن صلوبا أو صلوبا) صاحب بانقيا وبارُسما ، نبطي ، أي من أهل البلاد الأقدمين

(١) البلاذري (ص ٢٤٢) (٢) لم نعثر على كتاب ابن حبيش ، وقد نقلنا هذا الخبر من حوليات الاسلام لكيتاني : المجلد الثاني ، الجزء الأول ، الفقرة (١٥٦) ، السنة ١٢ هـ .

وفى السواد منظومة متقنة من الأنهار والأقنية، تأخذ الماء من الفرات ومن دجلة، والقسم العامر من السواد يبدأ من كورة (فيروز سابور)، وهي (الأنبار) وينتهي بكورة (شاذ سابور) أي (كسكر)، والقسم العامر فى الجنوب كورة (شاذ بهمن)، وهي كورة دجلة أي ميسان والأبلة وكانت الكور المستهدفة لخطر الغارات، هي المتاخمة لنهر الفرات، ككورة بهقباذ الأعلى ومن طساسيجها الفلوجة العليا والفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر وكورة بهقباذ الأوسط وطسوجها سورا وباروسما والسيبين وكورة بهقباذ الأسفل ومن طسوجها فرات بادقلى والسيلحين ولستر، ومن طسوج السيلحين الخورنق وطيزناباذ وكان نهر الغراب بوضعه الجغرافي الحد الذى يحمي الطساسيج الواقعة الى شرقه من خطر الهجوم

أما البطائح، فقد حمى الطساسيج الواقعة الى شرقها، كطساسيج كسكر والزندورد والزثور والداوازر، وكورة شاذ بهمن، أى كورة دجلة كميسان والمذار

أما طساسيج الأبلة، فما وقع منها على الضفة اليمنى من دجلة، لا يحميها عارض جغرافي، لهذا فلا غرابة اذا رأينا خالداً يغزوها

وكانت الحيرة ومن يليها على ما يظهر ذات نظام خاص، وكانت قبل الفتح العربي عدة طويلة ذات استقلال ذاتي، يحكمها المناذرة حتى قضى الفرس على هذا الاستقلال، وعينوا حاكماً عليها اياس بن قبيصة الطائي، عينه كسرى أبرويز عاملاً على الحيرة بعد النعمان أبن المنذر(١)

ويتضح من أخبار الفتوح أن الفخذ المتنفذ فى الحيرة، كان بني بقيله، ورئيسه عمرو أبن عبد المسيح الذى عقد خالد الصلح معه صلح الحيرة

أما القبائل التي سكنت البادية المتاخمة لأرض السواد، ففى الجنوب قبائل بكر بن وائل، وفى الشمال قبائل تغلب أما منازل بكر، فمن طريق (النباج ـ الأبلة) الى أطراف الحيرة وأما منازل تغلب، فمن أطراف الحيرة جنوباً الى الفراض وتدمر شمالاً ولعل الحيرة وما جاورها

(١) البلاذري (ص ٢٤٤).

كانت المنطقة الفاصلة بين منازل بكر ومنازل تغلب

وكانت قبائل كلب تسكن وسط بادية الشام ، وهي مجاورة لتغلب من جهة الشرق ، ومتاخمة لبلاد الشام من ناحية الغرب وكانت الخصومة ما تزال شديدة بين بكر وتغلب ، ورثتها من أيام الجاهلية وكانت قبائل تغلب قد تنصرت كما تنصر أهل الحيرة أما قبائل بكر فكان أكثرها مشركاً وليس من شك في أن المثنى رئيس بني شيبان كان مسلماً ، ومن الروايات ما تزعم أنه أسلم في حياة الرسول

وفيما ذكره البلاذري عن قدوم المثنى الى أبي بكر ، ما يدل على أن بعض بني شيبان كانوا مسلمين ؛ لأن المثنى طلب الى أبي بكر أن يستعمله على من أسلم من قومه ليقاتل بهم أهل أهل فارس[١] وتشير الأخبار الى أن قبائل بكر بن وائل بعد انتصارها على الفرس في معركة ذي قار تشجعت فأخذت تشن الغارات على تخوم العراق ومما زادها طمعاً في ذلك الفترة التي سادت فيها الفتن والاضطرابات في بلاد فارس وكانت القوافل التي تنقل الأمتعة من الأبلة الى الحيرة عبر بلاد بكر وبحمايتها ، كما كانت القوافل بين العراق والشام عبر بلاد تغلب وبحمايتها

وكان لقدوم المثنى على أبي بكر ، وعرض خدمة قومه في مقاتلة الأعاجم ، أهمية بالغة الأثر في نجاح حركات خالد ولو وقفت قبائل بني بكر ــ وأكثرها كما بينا سابقاً كان مشركاً ــ موقف الناصر للفرس كما وقفت تغلب ، أو أنها وقفت موقف المتربص ، لتعسر على خالد أن يمر بأرضها لمناوشة الفرس ، ولشق عليه إرسال الغنائم الى المدينة وسترى ، في بحثنا في حروب خالد في العراق ، الصعوبات التي جابهها من وقوف قبائل تغلب موقف المعادي ويستفاد من خبر الفتوح أنه كان للفرس بعض المسالح المنتشرة في أطراف البادية ، أقاموها من الشمالي الغربي الى الجنوبي الشرقي ، أي من غربي الأنبار الى جنوبي الأبلة ، وكان بعض هذه المسالح خارج نطاق خندق سابور

(١) البلاذري (٢٤٢)

فعين التمر والعذيب ، كانا من جملة هذه المسالح في الشمال ، وكانت خفان والولجة من مسالح الوسط أما الخريبة وحصن المرأة وكاظمة ، فكانت من مسالح الجنوب وتدل الروايات على أن الفرس أخلوا بعض المسالح قبل حركات خالد ، بسبب الفتن التي انتشرت فى بلادهم نخفان مثلا كانت خالية ، وكان قوم من بني بكر يقيمون فيها ، كما أن العذيب على ما يبدو لم تكن له حامية ويبدو أن أبا بكر استعظم أمر فارس ، وفى الحق أن وجه فارس كان من أكره الوجوه الى العرب ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم[1] لهذا نرى جرير بن عبد الله البجلي حين ندبه عمر ليمد من فى العراق بعد وقعة الجسر ، يكره الذهاب الى العراق ويريد الشام ، فيقول له عمر : الى العراق ، ويقول جرير : بل الشام ، ويكرر عمر قوله ، ويجيب جرير : بل الشام وفى رواية أخرى ذكرها الطبرى أن عمر ندب الناس للحرب فى العراق بعد موت أبي بكر ، فتفرقوا على غير إجابة

أما والأمر كذلك ، فكان من الطبيعى أن يستعظم أبو بكر أمر فارس ، ولا يكتفى بايفاد خالد بن الوليد لمقاتلة الفرس ، بل يرسل فى الوقت نفسه عياض بن غنم الى العراق أيضاً : الأول من اليمامة الى جنوبي العراق ، والثانى من الحجاز الى شمالي العراق ، ويتقدم الأول من النباج ووجهته الأبلة ، ويتقدم الثانى الى دومة الجندل ومنه الى شمالي العراق ، وهدف الاثنين (الحيرة) وفى رواية للشعبي « أن أبا بكر كتب الى خالد بعد فراغه من اليمامة : إن الله فتح عليك ، فعارق حتى تلقى عياضاً وكتب الى عياض بن غنم وهو بين النباج والحجاز : أن سر حتى تأتي (المصيخ) فابدأ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها ، وعارق حتى تلقى خالداً[2] » وفى رواية عن المغيرة بن عتبة « أن أبا بكر كتب الى خالد إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها ، والى عياض إذ أمره على حرب العراق أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستبقا الى الحيرة ، فأيهما سبق الى (الحيرة) فهو أمير على صاحبه[3] »

يتبين من هاتين الروايتين وروايات أخرى أن أبا بكر أراد أن يوفد جيشين الى العراق : جيش بقيادة خالد يدخل العراق من جنوبه ، وجيش آخر بقيادة عياض يدخل العراق من

(١) الطبري (٢/ ٦٣١) (٢) الطبري (٢/ ٥٥٣)
(٣) الطبري (٢/ ٥٥٤) .

شماله وكان بديهياً أن يكون أول هدف لحركة خالد الأبلّة فرج الهند ؛ لأنها ثغر العراق ، وقد أقام الفرس فيها حامية قوية بقيادة (هرمز) الذى كان يحارب العرب فى البر ويحارب الهند بالبحر ، وكان هرمز كما وصفوه من أسوأ أمراء ذلك الفرج جوراً للعرب

قوة خالد : من العسير التثبت من عدد المجاهدين الذين رافقوا خالداً فى حرب العراق ومن الروايات ما تذكر أن أهل المدينة الذين رافقوا خالداً فى قتاله لأهل الردة رجعوا الى أهلهم بعد ورود كتاب أبي بكر بالمسير الى العراق ، مما اضطر خالداً أن يستمد أبا بكر ، فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى ، وكتب اليه أن يستنفر من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الاسلام بعد الرسول ، وأن لا يغزو أحد ارتد ويتضح من ذلك أن القوة التي رافقت خالداً كانت من القبائل التي أمدته فى قتاله لأهل الردة

ذكر ابن حبيش فى رواية نقلها عن الواقدى : أن قوة خالد بن الوليد كانت تبلغ أربعة آلاف قبل حركته الى (بزاخة) ، وكان عدد الأنصار فيها زهاء خمس مئة مجاهد ولا ريب فى أن تلك القوة ازدادت بالتحاق بعض المتخلفين عنها ؛ لأن الروايات تشير الى أن أبا بكر أمد جيش خالد بالمجاهدين من المدينة قبل سفره من البطاح الى اليمامة وقد التحق به رجال من القبائل من طيء وتميم وغيرها ؛ لهذا يلوح أن قوة خالد كانت تتفاوت من خمسة آلاف الى ستة آلاف فى حرب اليمامة ، ولا بد أن عاد قسم غير قليل منها الى بلاده بعد الفتح وكان أهل المدينة من الأنصار والمهاجرين قفلوا راجعين الى أهلهم ولعل القوة التي بقيت مع خالد قبيل حركته الى العراق قد انخفضت الى النصف

وفى رواية للشعبي نقلاً عن سيف بن عمر أن قوة خالد حين حركته من اليمامة كانت ألفين ، ثم انضم اليها فى طريقه الى العراق ثمانية آلاف من قبائل مضر وربيعة ، فقدم خالد فى عشرة آلاف (١)

وذكر أبو يوسف أن خالداً خرج بألفين الى العراق ومعهم من الأتباع مثلهم . فمر بـ (فيد)

(١) الطبري (٢/٥٥٤)

فخرج معه خمس مئة من طيء ومعهم من الأتباع مثلهم ، فانتهى الى (شراف) ومعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر [١]

وما دام أبو بكر منع خالداً من أن يستنفر أحداً من المرتدين ، وأمره أن يكتفى بمن قاتل أهل الردة ومن ثبت على الاسلام ، فان عدد الذين التحقوا به فى طريقه الى العراق ينبغى ألا يكون كثيراً

ولكن خبر غزو العراق من جهة ، وحديث الانتصارات التي لازمت خالداً فى أسفاره من جهة أخرى ، لا بد أن حملا القبائل الساكنة بين اليمامة والعراق على الانضمام الى جيش خالد للاشتراك بخيرات الغزو والروايات تشير الى رغبة القبائل فى الاشتراك فى غزو العراق فالمثنى بن حارثة الشيبانى يقدم على أبي بكر ويطلب اليه أن يؤمره على قومه يقاتل بهم من يليه من أهل فارس ويكفيه ناحيته [٢] ، وسويد بن قطبة الذهلي أو قطبة بن قتادة الذهلي ومعه جماعة من قومه من بكر بن وائل يريد أن يفعل ما فعل المثنى فى الحيرة [٣]

واذا كان حقاً أن القوة التي رافقت خالداً فى سفره من اليمامة كانت تبلغ ألفيْ مقاتل ، فان الذين انظموا اليه فى طريقه والقوة التي كان قد جمعها المثنى بن حارثة من قومه والتي كان يغزو بها السواد وكذلك جماعة سويد ، قد ضاعفوا قوة خالد الأصلية وجعلوها تزيد ، ولعلها بلغت بهم أكثر من ستة آلاف رجل

قوة الفرس : لقد قرر مسعود بن حارثة الواقع لما قال لأبي بكر إن الفرس يهابون بكر بن وائل كما ذكره ابن حبيش تقدم خالد الى العراق فى نهاية الفترة المظلمة من تأريخ بني ساسان ، ولقد اشتد سوء هذه الفترة بثورة قباذ على أبيه كسرى أبروير فى بداية سنة (٦٢٨) وقتل أبيه فى سجنه والذى شجع قباذ على شق عصا الطاعة الهزائم التي منيت بها الجيوش الفارسية فى حروبها البيزنطيين فى عهد هرقليوس وفى عهد فوكاس سلف هرقل ، تجددت الحرب بين الفرس والروم سنة (٦٠٢) ، واستمرت عشرين سنة ، ووقعت معركة ذي قار بعد أن قضى

(١) كتاب الخراج (ص ١٦٩)
(٢) الطبري (ص ٥٥٢) (٣) البلاذري (ص ٢٤٣)

كسرى أبرويز على إمارة الحيرة ، وقتل ملكها النعمان ، وبذلك تضعضعت سيطرة الفرس على القبائل المتاخمة للعراق ، فتشجعت قبائل بكر بن وائل فغزت أطراف السواد ، ووطدت أقدامها فيه بعد انتصارها على الجيش الفارسي في ذي قار

وفي سنة (٦١) أسقط هرقليوس فوكاس ، وأصبح انبراطورا لبيزنطية ؛ واعتبر كسرى أبرويز هذا الحادث نقضاً المعاهدة التي عقدها مع فوكاس ، فأعلن الحرب على الروم وضبطت الجيوش الفارسية دمشق سنة (٦١٣) ، ثم احتلت القدس سنة (٦١٤) ، واغتنمت الصليب المقدس ، واستولت على مصر ، وتقدمت بعد ذلك في بلاد الأناضول حتى بلغت مدينة خالكدون المقابلة لمدينة القسطنطينية عاصمة الروم لم يستطع هرقليوس القيام بالهجوم المقابل إلاّ سنة (٦٢٢) ، فتقدم بجيوشه من شرقي الأناضول ، وتوغل في العراق من الشمال حتى وصل في بداية سنة (٦٢٨) الى الدسكرة التي اتخذها كسرى أبرويز مقراً له منذ أربعة وعشرين سنة ، واستولى هرقل على الدسكرة ، فهرب كسرى الى المدائن والتجأ فيها ، فثار ابنه قباذ عليه ، وألقاه في السجن ، وأعلن نفسه ملكاً على الفرس

وقعت هذه الحروب بين الفرس والروم فى بداية عهد الرسول ، وبعد أن غلب الروم في أقصى الأرض كما أشارت إليه الآية الكريمة ، استعادوا قواتهم ، فتغلبوا على الفرس ، واستردوا جميع ما فقدوه من بلادهم .

وكان اشتداد الفترة المظلمة من بداية سنة (٦٢٨) الى جلوس يزدجرد على عرش الأكاسرة سنة (٦٣٣) وكان أول عمل دشن به قباذ حكمه أن قتل جميع إخوانه وبعد أن حكم ستة أشهر مات ، فتولى بعده الملك أردشير وعمره سبع سنوات ، وحدثت في عهده اضطرابات وفوضى ، وهاجم الخزر المملكة الايرانية من الشرق ، وحاول كسرى بن قباذ تأسيس مملكة فى خراسان بمساعدة الخزر ولكنه مات مقتولاً بعد بضعة أشهر ثم أعلن شربراز القائد العام نفسه ملكاً وتقدم بجيوشه نحو المدائن ، واحتلها ، وقتل أردشير ، واغتيل بعده شربراز ، فتولت الملك بوران بنت كسرى أبرويز لفقدان الذكور من الأسرة المالكة ، ولم يطل حكمها أكثر من بضعة أشهر ، وخلفها أختها آذرميدخت فى الملك سنة (٦٣١) ،

غير أن جنود شربراز فى نصيبين أعلنوا هرمز حفيد كسرى أبرويز ملكاً ، فخلع القائد رسم آذرميدخت ، وتولى الملك في المدائن فرخراد الابن الوحيد الذي سلم من القتل ، وفي الوقت نفسه أعلن أشراف فارس يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز ملكاً ، وذلك في أوائل سنة (٦٣٣) ، وبذلك انتهت فترة الحروب الداخلية في بلاد فارس التي كانت أشد أيامها محنة السنوات الخمس الأخيرة

•

ومن البديهى أن يكون الفرس ضعفاء في تلك الفترة ، فتقتصر قواتهم فى العراق على حاميات المسالح ، وكانت حاميات هذه المسالح من الضعف والاستكانة بحيث إنها لا تستطيع أن يساند بعضها بعضاً لهذا رأينا الحاميات فيها تتلقى الضرباب بنفسها دون أن تنجدها قوة أخرى ولعل عاصمة الفرس الشتوية ، المدائن ، كانت محرومة من قوة احتياطية تنجد الحاميات حين الحاجة أو تقوم بهجوم معاكس كما جرى بعد ذلك ؛ لهذا تتعسر معرفة قوة الفرس التي حاربت خالداً في حركاته

أما الروايات فقد بالغت في عدد القتلى من الفرس ، واندفعت وراء الخيال في وصف القتال ، حتى إنها سمت نهراً وقع فيه القتال (نهر الدم) إشارة الى ما سفك فيه من دماء

(للبحث بقية) طه الهاشمي

فهرست الجزء الأول من المجلد الثالث

المقالات

الكتب

أنباء وآراء

مجلة
المجمع العلمي العراقي

المجلد الثالث

الجزء الثاني

(١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م)

مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد

خالد بن الوليد في العراق [1]

استندنا في شرحنا لأواخر عهود ملوك ساسان الى ما أورده المستشرق الألماني (نولدكه) في كتابه تأريخ الفرس وقد ذكر أن يزدجرد آخر ملوك ساسان جلس على عرش الأكاسرة سنة ٦٣٣ م ، أي سنة ١٣ هـ ، وأن أردشير قتل سنة ٦٢٩ م وذكر (كيتاني) أن سبعة ملوك بين رجال ونساء وأدعياء الملك ، تولوا الحكم من سنة ٦٢٩ الى سنة ٦٣٢ م ، وهي السنة التي تولى فيها يزدجرد الملك وبذلك يخالف كيتاني نولدكه في السنة التي حكم فيها يزدجرد ، بيما ثبت الطبري حوادث العراق من قتال كاظمة الى موقعة مجمع الأنهار في عهد أردشير ملك فارس ، وبين أن أزاذبه حاكم الحيرة الفارسي ترك مقاتلة خالد بن الوليد ، وعبر الفرات هارباً ؛ لأن الخبر وقع اليه بموت أردشير ولكن فيما أورده الطبريّ من أخبار عن بهمن جاذويه القائد الفارسي الذي عهد اليه الدفاع عن العراق ، دلالة على أن البلاط الفارسي في المدائن كان يومئذٍ معرضاً للمؤامرات والدسائس ، وأن القائد الفارسي المذكور آثر الاشتراك في تلك المؤامرات على تعهد مهمته التي أوفد من أجلها

والذي يتراءى لنا أن سفر خالد بن الوليد في العراق صادف العهد الذي كانت الانقلابات فيه سائدة في بلاد فارس ، والحكم فيها كان غير مستقر ، والثابت أن الفرس لم يتمكنوا من تجهيز قوة كبيرة تقوم بطرد العرب إلا سنة ١٤ هـ ، أي سنة ٦٣٤ م ، بعد أن تولى رستم القيادة العامة ، واعتلى يزدجرد العرش

الشروع في الحركات : وقبل البدء بشرح الحركات التي قام بها خالد بن الوليد في العراق ، يحسن أن نشير الى قضية تناولها بعض المستشرقين في بحوثهم عن الفتوح في صدر الاسلام ، فقد زعم هؤلاء ، وفي طليعتهم المستشرق الإيطالي (كيتاني) ، أن الحركات التي جرت في العراق وفي الشام بعد حروب الردة ما هي إلّا غارات شنّها العرب على تخوم الانبراطورية الساسانية

(١) أنظر الجزء السابق من هذه المجلة

والانبراطورية البيزنطية للسلب والنهب جرياً على عادتهم ويدعي (كيتاني) أن تلك الحركات لم تجر على وفق خطة مقررة رسمت خطوطها في المدينة واستند اليها القادة المسلمون في عملياتهم ، ويرى أن خالداً بعد انتصاراته في حروب الردّة توجه الى العراق مغيراً وغازياً ، ولم يستهدف في عمله هذا فتح البلاد ، ويزعم أن عمل العرب في الشام قبيل معركة اليرموك لم يكن الا إغارات بعيدة عن فكرة الفتح ، ويقول : إن العرب لما داهمهم الخطر بتحشد جيوش هرقل في شمال بلاد الشام ، وتقدمها نحو حمص مستهدفة طرد العرب ، اضطروا الى توحيد القيادة ، وناطوها بعهدة أبي عبيدة بن الجرّاح ، وحينئذٍ اعتزموا فتح البلاد ، وكانت معركة اليرموك فاتحة لهذا العهد الجديد في حروب العرب

وقد سيطرت هذه الفكرة الثابتة على (كيتاني) في جميع بحوثه عن فتوح العرب قبل معركة اليرموك ؛ ولهذا أنكر المراسلات التي جرت بين الخليفة أبي بكر وقادته في العراق وفي الشام ، وقد أسهب الراوي سيف بن عمر فى تفاصيل هذه المراسلات ولكنّ (كيتاني) لم يعتمد على أخباره ، وعدّ ما رواه من نسج الخيال واذا كان (كيتاني) يقصد بالخطة التي تستهدف الفتوح أن يضع القادة بالاتفاق مع الخليفة خطة حربية تتضمن جميع تفاصيل الحركات وتشير الى ما ينبغي اتخاذه من تدابير سوقية قبيل المعركة وفي أثنائها ، فانّا نقرر معه أن العرب لم ينهجوا هذا النهج ، ومع ذلك سلكوا الطريقة التي سلكها القادة قبلهم وبعدهم والحقيقة أن الحركة في الحروب على وفق خطة مرسومة ترسم خطوطها قبل اعلان الحرب والعمل بموجبها في الحركات ، هي طريقة مستحدثة ، سار عليها القادة في الحروب التي وقعت في القرون المتأخرة ، تبينت في حروب فريدريك الكبير ملك بروسية وفي حروب نابليون انبراطور فرنسة ، ودعمت في الحروب التي جرت بعد ذلك

وعمليات خالد في العراق ، وعمليات القادة العرب الآخرين في الشام ، لا تختلف عن الأعمال الحربية التي جرت قبل ذلك سواء في الانبراطورية الساسانية أو الانبراطورية البيزنطية . صحيح أن الأخبار التي دلت على أن خالداً توجه الى العراق بأمرٍ تلقاه من أبي بكر ، وأنه تلقى بعد ذلك وصايا أخرى تشير الى هدف الحركات ، هي روايات ذكرها سيف بن عمر ورواة

آخرون ، ولم يشر الرواة المشهورون اليها صراحةً ، ولـكنه لايوجد دليل يستند اليه الباحث في انـكار تلك الروايات

ونذكر فيما يأتي — بايجازٍ — الروايات التي تدل على أن سفر العراق جرى بموجب أوامر موجهة تلقـاها خالد من الخليفة أبي بـكر :

ذكر سيف بن عمر عن الشعبي أن أبا بكر كتب الى خالد ، وهو مقيم باليمامة ، أنْ « سِرْ الى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بفرج الهند الأُبُلـَة (١) »

ويؤيد هشام بن الـكلبي هذه الرواية ذاكراً أن أبا بكر كتب الى خالد وهو باليمامة أمره أن يبدأ بالعراق فيمرّ بها (٢)

وفي رواية أخرى لسيف بن عمر عن الشعبي جاء فيها : أن أبا بـكر كتب الى خالد لما فرغ من اليمامة : « إنَّ الله فتح عليك ، فعارِقْ حتى تلقى عيـاضاً » ، وكتب الى عياض بن غنم ، وهو بالنباج والحجاز (أي بنباج الحجاز لانباج بني عامر الذي نزل فيه خالد) ، أنْ : « سِرْ حتى تأتي (المُصَـيَّـخ) ، فابدأ بها ، ثم أُدخل العراق من أعلاها ، وعارقْ حتى تلقى خالداً (٢) »

وفي رواية أخرى، لسيف بن عمر عن المغيرة بن عتيبة ، جاء فيها : أن أبا بكر كتب الى خالد ابن الوليد ، إذ أمّره على حرب العراق ، أن يدخلهـا من أسفلها ؛ والى عياض أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستبقا الى الحيرة ، فأيها سـبق الى الحيرة فهو أمير على صاحبه وقال : « إذا اجتمعتما بالحيرة ، وقد فضضتما مسالح فارس ، وآمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصـاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدوّ الله وعدوّكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن (٣) »

هذه هي الروايات التي ذكرها الطبري نقلاً عن سيف بن عمر وأبن هشام ، ويتضح منهـا أن خالداً توجه الى العراق بأمر الخليفـة ، مهمته فتح العراق ، وهدفه الأول الأُبُلـة ، وهدفه الثاني الحيرة ، وهـدفه الثالث والأخير المدائن والأمر على ايجازه يتضمن الخطة التي قررهـا

(١) تأريخ الطبري (٢/٥٥١) (٢) ص (٥٥٣) (٣) ص (٥٥٤)

الخليفة ، والأهداف التي يرمي اليها

ويبدو من أوامر الخليفة أبي بكر أنه وجه جيشين الى العراق كما ذكرنا سابقاً : الجيش الأول بقيادة خالد بن الوليد يتقدم نحو العراق من الجنوب وهدفه الحيرة ، والجيش الثاني بقيادة عياض بن غنم يتقدم الى العراق من الشمال وهدفه الحيرة أيضاً وهذا ما يعبر عنه في سوق الجيش (الاستراتيجي) بالحركة على الخطوط الداخلة لإجبار العدو على تقسيم قوته الى قسمين يقفان ويثبتان بوجه كل من الجيشين المتقدمين على خطين داخليين

ويتبين من رواية قاضي الكوفة المغيرة بن عتيبة أن الخليفة كان يتوخى من حركة خالد وحركة عياض أن تنتهي الحركتان بفتح المدائن ، عاصمة الفرس الشتوية ، ولكنه جعل اقتحام بلاد فارس وضبط المدائن الهدف الثالث ، وهو الهدف النهائي ، أو الهدف الرئيس كما يعبر عنه بالمصطلحات السوقية حديثاً

ومما يلفت النظر أن الخليفة يحذر القائدين من التقدم الى الهدف الثالث قبل أن يفضا مسالح فارس المنتشرة على حدود السواد من كاظمة في أقصى الجنوب الى عين التمر في الشمال ، وأن يحتفظا بطريق الرجعة بجعل أحدهما ردْءاً لصاحبه في الحيرة ، أي يتقدم أحدهما نحو المدائن ، ويبقى الآخر في الحيرة بمثابة قوة احتياطية تراقب البلاد المفتوحة غربي الفرات وفي أرض السواد ، ويحمي خط الانسحاب اذا أخفقت الحركة نحو المدائن

والروايات المذكورة ، على وضوحها وتعدد رواتها ، أنكرها (كيتاني) ؛ لأنها تهدم ما قرره قبلاً وجعله فكراً ثابتاً لا يحيد عنه مهما وجدت من روايات تخالف ما ارتآه هذا ابن حبيش ، الذي اقتبس(كيتاني) منه الروايات التي تؤيد رأيه في انكار بعض الحوادث ، يشير ـ كما جاء في رواية عمر بن شبة ـ أن المسلمين في الشام لو لم يحتاجوا الى خالد ، لمكث خالد في العراق الى أن يتم الله نصره

ولا ندري لماذا شك(كيتاني) في صحة تلك الروايات ، وأصر على أن حركات المسلمين في العراق وفي الشام لم تكن أعمال فتح بالمعنى المفهوم ، بل حاول أن يعد خالداً أجرى الحركات في العراق من غير أن يتلقى أمراً من الخليفة أبي بكر ، وقام بها من تلقاء نفسه ، تطميناً لرغباته ، وإشباعاً

لشهوات من التف حوله من عرب البادية في النهب والسلب

والغريب من أمر (كيتاني) أنه استشهد بجملة أوردها ميرخوندي في كتابه (روضة الصفا) على سبيل الوصف والتعريف ، وعدّها دليلاً قاطعاً على ما ذهب اليه والكاتب هذا حينما بحث حركات خالد في العراق ، قال : « بتاراج أموال كفار » ، أي « لسلب أموال الكفار » والجملة هذه ، لا تعني الغرض الذي كان يرمي اليه خالد من سفره في العراق ، بل هي وصف كان يستعمله الكتاب الفرس ، وما يزال يستعمل المبالغة ولكن (كيتاني) عدّ هذا دليلاً كافياً يدعم الزعم بأن خالداً ذهب الى العراق للسلب والنهب ، مع أن شريعة الحروب في الماضي كانت تبيح ، الى وقت غير بعيد ، الاستيلاء على الأموال وهذا أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة يصرح فيما كتبه عن حركات خالد أنه في كل حصنٍ حاصره قَتَلَ مَنْ فيه من المقاتلة ، وسبى النساء والذراري ، وأخذ جميع ما كان فيه من السلاح والمتاع والدواب ، وهدم الحصن[١]

والذي يتتبع حركات العرب في العراق ، يتبين منها أنهم استهدفوا في حركاتهم فتح العراق ، وأنهم فتحوا في أول الأمر البلاد الواقعة الى غربي الفرات ، واستولوا على الحيرة مقرّ الإمارة ، وحاولوا اجتياز الفرات ، وفتح بعض المواضع بين نهري الفرات ودجلة ، ومكثوا في المواضع التي فتحوها الى أن استقر الأمر في بلاد فارس ، فجهز الفرس الجيوش لاسترداد البلاد وكان من الطبيعي أن ينسحب المسلمون من الأماكن التي مكثوا فيها ، ولا سيما لما سار خالد بن الوليد الى الشام ، تلبيةً لأمر الخليفة ، ونجدةً للمسلمين ، ومع ذلك كان انسحابهم موقتاً ، الى أن جهز الخليفة عمر بن الخطاب الجيوش بقيادة سعد بن أبي وقّاص ، وتمّ فتح العراق على يده

ولا يصح جعل هذا الانسحاب الموقت دليلاً على أن العرب لم يستهدفوا بحركاتهم في العراق الفتح ؛ لأن الانسحاب الى منطقة أمينة ، عند تأزم الموقف الحربي ، عمل تقضي به الضرورات العسكرية ونود بهذه المناسبة أن نشير الى أن المستشرق الشكوسلوفاكي (ميوسل) كان أول من سفه آراء (كيتاني) في هذا الشأن ، وانتقدها في كتابه (الفرات الأوسط) ، وسنرى في تعقيبنا لسير الحوادث أن خالداً كان في حركاته فاتحاً ، لا مغيراً

(١) كتاب الخراج : ص (١٦٩)

خالد في النباج : [أنظر خارطة الطرق] مكث خالد مــدة قصيرة في النباج ، واطلع في أثناء اقامته فيها على أخبار العدوّ ، وعلم أن الفرس يرابطون في مدينة الأُ بُلَّـة بقيادة هرمز ، ولعل هذا القائد كان حاكماً في ثغر العراق ، الأُ بُلّـة ، منذ مدة طويلة ولا بد أن المثنى حين لاقى خالداً في النباج أطلعه على موقف الفرس الذي بإزائه ، وقد لبى طلب خالد بالمجيء اليه ، وأتاه من خَفّان مسرعاً كما تشير الى ذلك الروايات وتكاد الروايات تجمع على أن المثنى كان متلهفاً على العمل ، مستنجداً بالخليفة ونورد فيما يلي رواية هشام بن الـكلبي عن المثنى :

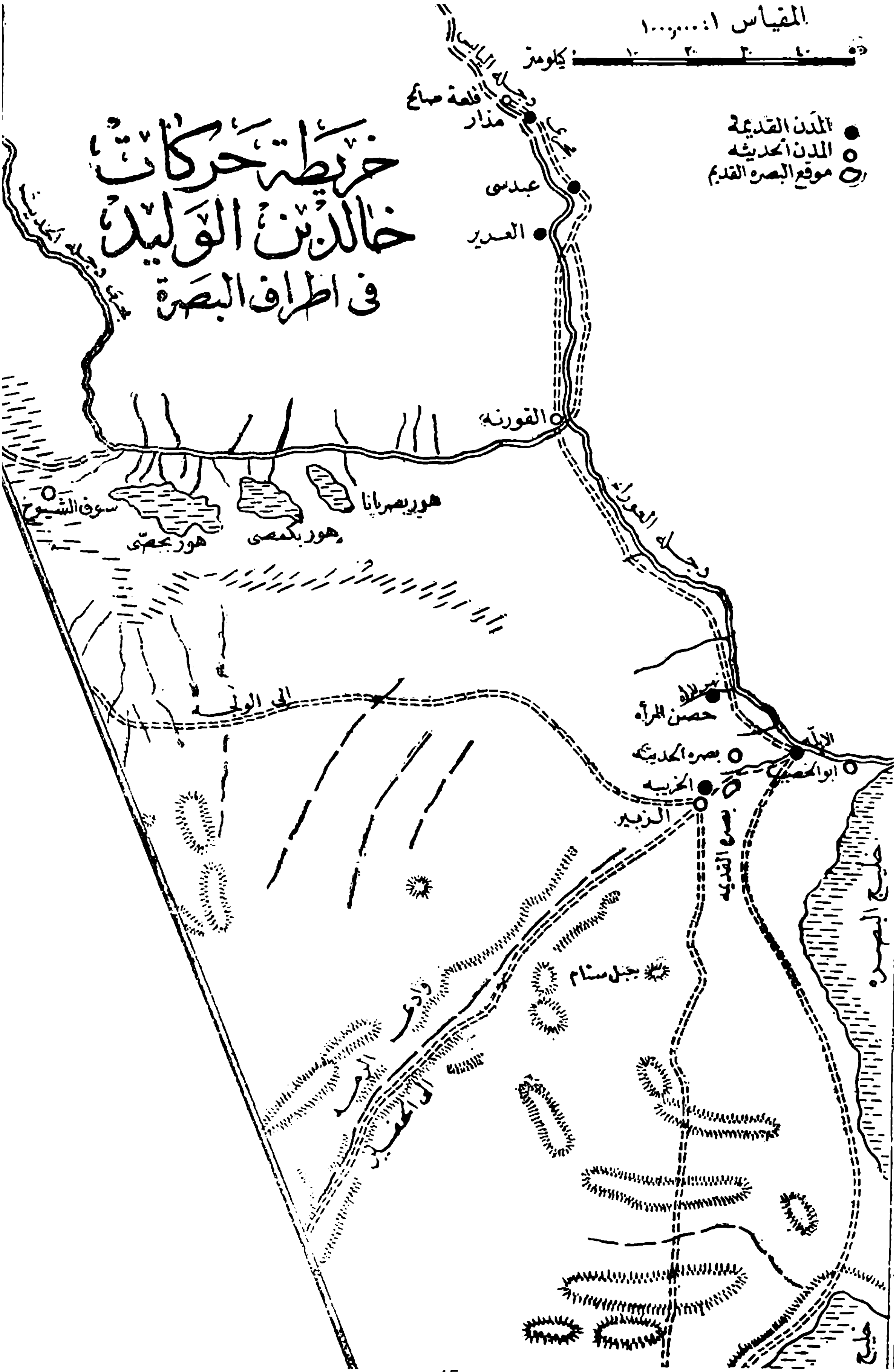
« قال هشام ، قال أبو مخنف ، قال أبو الخطاب حمزة بن علي ، عن رجل من بكر بن وائل : إن المثنى بن حارثة الشيبانيّ سار حتى قدم على أبي بكر رحمه الله ، فقال : « أمّرني على من قِبلي على قومي ، أقاتل من يليني من أهل فارس ، أكفيك ناحيتي » ففعل ذلك فأقبل ، فجمع قومه ، وأخذ يغير بناحية كسكر مرة ، وفي أسفل الفرات مرة أخرى ، ونزل خالد بن الوليد النباج ، والمثنى بن حارثة بخفّان معسكر ، فكتب اليه خالد ليأتيه ، وبعث اليه بكتاب من أبي بكر يأمره بطاعته ، فانقض اليه جواداً حتى لحق به »(١)

وذكر أبو حنيفة الدينوري أن رجلين من بكر بن وائل ، أي المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي ، أقبلا حتى نزلا جميعاً بتخوم العراق ، أرض العجم ، فكان يغيران على الدهاقين ، فيأخذانِ ما قدرا عليه ، فاذا طُلبا أمعنا في البر ، فلا يتبعهما أحد ؛ وكان المثنى يغير من ناحية الـكوفة ، وسويد من ناحية الأُ بُلّـة ، وذلك في خلافة أبي بكر وأضاف أن المثنى كتب الى أبي بكر يعلمه ضراوته بفارس ، ويعرفه وهنهم ، ويسأله أن يمده بجيش ... » (٢)

وقال البلاذري : « إن المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم الشيباني ، كان يغير على السواد من قومه ، فبلغ أبا بكر الصديق عنه خبره ، فسأل عنه ، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيباني ثم إن المثنى قدم على أبي بكر ، فقال له : يا خليفة رسول الله ، استعملني على

---

(١) الطبري : ص (٥٥٢) . (٢) الأخبار الطوال : ص (١١٧ ، ١١٨) .


خريطة حركات
خالد بن الوليد
في اطراف البصرة
المقياس
كيلومتر
المدن القديمة
المدن الحديثة
موقع البصرة القديم
قلعة صالح
مذار
عبدسى
العذير
القورنة
هور بصريانا
هور بكمصى
هور بحصى
سوق الشيوخ
الى الولجة
دجلة العوراء
حصن المرأة
بصرة الحديثة
الخريبة
الزبير
الأبلة
ابو الخصيب
البصرة القديمة
جبل سنام
وادي الرمة
خليج البصرة

من أسلم من قومي ، أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً ، فسار حتى نزل خفّانَ ، ودعا قومه الى الاسلام فأسلموا ثم إن أبا بكر كتب الى خالد بن الوليد المخزومي يأمره بالمسير الى العراق ، وكتب أبو بكر الى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له وتلقيه » (١)

هذه هي أهم الأخبار عن المثنى بن حارثة وقد ذكرنا فيما سبق رواية عمر بن شبة التي أثبتها ابن حبيش عن المثنى ويظهر مما أورده الدينوري أن المثنى وسويداً سلكا خطة البدو في مهاجمة البلاد المتاخمة لهم ولما كانت فارس في زمن ضعفها ومحنها ، كان من الطبيعي أن يتوغل المثنى في أرض فارس ، ويستولي على بعض المسالح التي أخلاها الفرس ، ومنها خفّان

واذا علمنا أن أخبار القتال تنتشر بسرعة ، وأن الناس في جزيرة العرب كانوا على علم تام بما كان يجري فيها من وقائع ، نجزم بأن المثنى بن حارثة ، وهو رئيس قبيلة مشهورة من قبائل بكر ابن وائل ، كان على علم بأخبار خالد في حروب الردّة ، وقد تعقب أخبار انتصاراته في براخة والبطاح واليمامة ، وكان بحكم سليقته البدوية يتوقع الانتصارات المذكورة التي لا بد أن تسوق القائد الظافر الى المسير الى تخوم العراق ، فيجعل هذا المسير جيش المسلمين وجهاً لوجه أما الاصطدام ، فليس فيه الا الخسارة ، وقد يعقبها حرمان قبيلته من الغنائم التي قد يظفر بها المسلمون في قتالهم مع الحاميات الفارسية على الحدود ورأى أن المنفعة كلها في انحياز قبيلته الى المسلمين ، وتشجيعهم على محاربة الفرس ، وبذلك يتوصل الى هدفين : أحدهما المكاسب التي تنالها القبيلة ، والآخر الحصول على حليف قوي يساعد بكراً على خصومها اللُّدّ بني تغلب حلفاء الفرس ويفهم مما نقله السهيلي في كتابه الروض الأُنُف عن ابن كثير أن ثمة اتفاقاً بين النبي وعرب بكر بن وائل ضد الفرس ، ولهذا قال الرسول لما انتصرت بكر بن وائل في ذي قار : « هذا أول يوم انتصف العرب العجم ، وبي نصروا »

ولم يكن المثنى وحده من بني بكر الداعين الى غزو الفرس ، فالروايات تشير الى رئيس ثانٍ وهو سويد بن قطبة الذهلي ، أو قطبة بن قتادة الذهلي ذكر البلاذري عن أبي مخنف

(١) البلاذري : ص (٢٤٢) .

أن خالد بن الوليد حين أتى البصرة كان بها قطبة بن قتادة الذهلي من بكر بن وائل ، ومعه جماعة من قومه ، وهو يريد أن يفعل بالبصرة مثل فعل المثنى بالكوفة ، ولم تكن الكوفة يومئذ ، إنما كانت الحيرة [1] وكان هذا الرئيس أيضاً يغير من ناحية الخريبة في أطراف البصرة على الفرس ، كما كان المثنى يغير من خفّان على أطراف الحيرة وهناك رئيس ثالث من بكر بن وائل ، وهو مذعور بن عديّ العجلي ، كان قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه ، ويسأله توليته قتال الفرس ، فكتب اليه يأمره أن ينضم الى خالد ، فيقيم معه اذا أقام ، ويشخص اذا شخص [1]

والذي يظهر من هذه الأخبار أن ثلاثة قبائل من قبائل بكر بن وائل ، كانت على استعداد للانضمام الى جانب المسلمين في حروبهم في العراق ، وهي : قبيلة بني شيبان ورئيسها المثنى بن حارثة ، وقبيلة بني ذُهْل ورئيسها قطبة بن قتادة أو سويد بن قطبة الذهلي ، وقبيلة بني عجل ورئيسها مذعور بن عديّ العجلي ولا ريب في أن انضمام من أسلم من هذه القبائل الى جانب المسلمين زاد في عدد جيش خالد ، وكنا قدرنا عدده بأكثر من ستة آلاف مقاتل وبانضمام جماعات من بكر بن وائل اليه في العراق ، لا يستبعد أن عدده بلغ زُهاءَ ثمانية آلاف أما سيف بن عمر ، فقد قدره بعشرة آلاف : ألفان رجال خالد ، وثمانية آلاف من انضم اليه من قبائل مضر وربيعة

وكانت وصية أبي بكر لخالد لما ولاه العراق : « أن يبدأ بفرج الهند الأُبُلّة ، ويأتي العراق من أسفلها ، وأن يتألف قلوب الناس ، ويدعوهم الى الإسلام ، فان أجابوا ، والاّ أخذ منهم الجزية ، فان امتنعوا من ذلك قاتلهم وأمره ألا يُكْرِه أحداً على المسير معه ، ولا يستعين بمن ارتد عن الإسلام ، وان كان عاد اليه ، وأمره أن يستصحب معه كل امرىء مرّ به من المسلمين » [2]

وليس غريباً أن يتنافس رؤساء بني بكر الثلاثة ، المثنى وسويد ومذعور ، على الرئاسة ،

---

(١) البلاذري ، (٢٤٣)

(٢) تأريخ ابن كثير : (٥ ، ٦/٣٤٢) وجاء فيما كتبه ابن كثير : « ويأتي العراق من أعاليها » ، والصواب من أسفلها

ويطلبوا من أبي بكر أن يوليهم الرئاسة ؛ والتنافس على الرئاسة خلة مذمومة طالما أنزلت المصائب بالعرب ، وما يزال سبب نكباتهم ولعل هذه المنافسة هي التي اضطرب خالداً الى أن يخلف سويداً على البصرة بعد كسره الفرس في كاظمة ، ويتوجه الى الشمال وهدفه الحيرة يقيناً أنه كان بحاجة الى قوة سويد لتساعده في حروبه مع الفرس ، ولكن فضل ترك تلك القوة مع سويد في أطراف البصرة على أن يكون في جيشه رئيسان متنافسان

ويبدو مما ذكره الدينوري أن المثنى نفسه لم يرح لتولية أبي بكر خالداً عليه ، ويذكر الدينوري أن المثنى كره ورود خالد ، وكان ظنّ أن أبا بكر سيوليه الأمر [١] والواقع أن عرض قبائل بني بكر حلفهم للمسلمين في مقاتلة الفرس ، كان ذا فائدة كبيرة ولو لا مساعدة أولئك القبائل ، لشقّ على المسلمين محاربة الفرس ؛ لأن طريق الغزو يمر بديارهم وإذا تنكر بنو بكر للمسلمين ، يجابهون صعوبات في المحافظة على خطوط المواصلة التي تربطهم بالمدينة ، فينقطع منهم المدد ، كما أن تراجعهم حين الحاجة يلاقي عناء ومشقة ، فضلاً عن أن الأنفال تتعرض للنهب ويلوح أنه اذا كانت قبائل بني بكر قد استفادت كثيراً من انحيازها الى المسلمين ، فان هؤلاء أيضاً استفادوا فائدة كبيرة بمظاهرة تلك القبائل وسنرى أن موقف بني تغلب المعادي للمسلمين ، والموالي للفرس ، شغل بال خالد كثيراً ، وقد اضطر الى القيام باغارات متوالية على أرض تغلب تارةً في اليمين ، وتارة في الشمال وبعد أن كسر شوكة تغلب ، استطاع أن يسلك وادي الفرات ويذهب الى الفراض ، ثم الى أطراف قرقيسيا والرصافة

وقد قدرنا سابقاً قوة خالد حين وصوله الى أرض العراق بأكثر من ستة آلاف ، وذكرنا أن قوة بكر من جماعة المثنى في خفّان ، وجماعة سويد في أطراف البصرة ، لم تدخلا فى هذا العدد ؛ لأنهما كانتا تقاتلان الفرس في أرض العراق ونريد الآن أن نثبت القوة التي وصلت مع خالد الى النباج ، ونذكر الأخبار التي وردت عن قوة خالد :

(١) روى سيف بن عمر عن الشعبي أن أبا بكر كتب الى خالد حين ولاه أمر العراق أن يأذن لمن شاء بالرجوع ، ولا يستفتح بمتكاره ، وطلب اليه أن يستنفر مَنْ قاتل أهل الردة ومن

(١) الأخبار الطوال : ص (١١٧ ، ١١٨)

ثبت على الإسلام بعد رسول الله ، ولا يغزون معه أحد ارتد حتى يرى رأيه ؛ لهذا لم يشهد الأيام مرتد فلما قدم الكتاب على خالد بتأميره على العراق ، كتب الى حرملة وسلمى ومذعور باللحاق به ، وأمرهم أن يواعدوا جنوده الأبُـلّة ، وذلك أن أبا بكر أمر خالداً في كتابه اذا دخل العراق أن يبدأ بفرج أهل السند والهند « الأبُـلّة » ليوم سمّاه ، ثم حشر مَنْ بينه وبين العراق ، فحشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر الى ألفين كانا معه ، فقدم في عشرة آلاف على ثمانية ممن كان مع الأمراء الأربعة : المثنى ، ومذعور ، وسلمى ، وحرملة فلقى هرمز (في كاظمة) في ثمانية عشر ألفاً (١)

(٢) كتب أبو يوسف نقلاً عن محمد بن اسحاق وغيره أن أبا بكر وجهَ خالداً الى العراق ، فخرج فى ألفين ، ومعه من الأتباع مثلهم ، فمرّ بـ « فائد » ، فخرج معه خمس مئةٍ من طيء ، ومعهم مثلهم ، فانتهى الى « شراف » ، ومعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر (٢)

والذي يهمنا فيما ذكره أبو يوسف ، قوة خالد ؛ لأن أبا يوسف أخطأ فيالطريق التي سارعليها خالد ، لأنه لم يمر بفيد ولا بشراف ، بل سار من النباج ، نباج بني عامر ، الى أطراف البصرة

(٣) روى سيف عن المغيرة بن عتيبة قاضي الكوفة ، قال : فرق خالد ، مخرجَهُ من اليمامة الى العراق ، جُندَه الى ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحـــد ، فسرّح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر ، وسرح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر ، أحدهما قبل صاحبه بيوم ، وخرج خالد ودليله رافع (١)

يظهر من تلك الروايات أن قوة خالد التي أتت معه من اليمامة ، كانت ألفين ، وانضم اليها في طريقه الى العراق قوات من مضر وربيعة ، قُـدِّر عددها بثمانية آلاف ، وزُعم أن ثمانية آلاف أخرى انضمت اليه بأمرة الأمراء الأربعة : المثنى ، ومذعور ، وسلمى ، وحرملة أما المثنى ، فنعلم أنه كان على رأس رجاله في خَـفّان وأما مذعور ، أي مذعور بن عدي العجلي من بكر بن وائل ، فينبغي أنه التحق بخالد بعد وصوله الى النباج أما سلمى وحرملة ، فلا نعلم أين

(١) الطبري : (٢/٥٥٤) (٢) كتاب الخراج : (ص ١٦٩)

كانا والى أية قبيلة ينتسبان ، ولم يرد أسماهما في حروب خالد في العراق ، إنما وردا في مقاتلة الهرمزان قائد الفرس في خلافة عمر ولم يرد اسم عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو في رواية الشعبي ، هل هما من حشور ربيعة ومضر كما جاء في الرواية ؟ ولا بد أن جماعات من تميم التحقت بخالد ، وهي من مضر أما بكر بن وائل ، فهي من ربيعة أما عدي بن حاتم ، فهو رئيس قبائل طيء ، وقد شارك خالد بن الوليد في قتاله أهل الردة ، وقبيلة طيء قحطانية ، ليست عدنانية من ربيعة أو مضر

يقيناً أن الشعبي بالغ كثيراً في العدد الذي ثبته أما أبو يوسف ، فقد أنزل القوة الى خمسة آلاف أما المغيرة بن عتيبة ، فقسم جيش خالد قبل حركته من النبـاج الى الحفير ثلاث فرق : فرقة المثنى ، وفرقة عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ، وفرقة خالد وقد ثبتنـا فيما تقدم أن المثنى كان في خفّان ، ولم يكن في النباج ، أتى النباج بنفسه لمواجهة خالد ، أما جنده فبقي في خفان

والذي نتبينه مما سبق أن خالداً وصل الى النباج مع من قاتل معه في اليمامة ، وهم ألفـان ، وقد انضم الى ذلك جماعات من مضر ومن ربيعة من بني تميم وبني أسد وهوازن ومُزَينة وغيرهم ، فزاد عدده حتى بلغ خمسة آلاف فأكثر ، وانضم اليه في النبـاج رجال من طيء ما عدا الذين كانوا معه بإمرة عدي بن حاتم

هكذا بلغت قوة خالد وهو بالنباج أكثر من ستة آلاف ، وأخيراً انحاز اليه مذعور بن عدي العجلي ، وهو من بكر بن وائل أما جنود المثنى وسويد ، فكانوا في مراكزهم في خفّان وأطراف البصرة ومما يجدر الإشارة اليه أن المهاجرين والأنصار الذين رافقوا خالداً في مقاتلته لأهل الردة وعادوا الى أهلهم بعد قتال اليمامة ، قفل عـدد منهم والتحق بخـالد ، وقد وردت أسماء هؤلاء في حروب العراق

وكان الموقف العسكري في النباج حين نزول خالد يتلخص فيما يأتي :

(١) جند المسلمين :

ا ــ خالد ومن رافقه في سفره من اليمامة ومن انضم اليه في طريقه الى النباج في النباج

ب ــ جماعات من قبائل طيء برئاسة عدي بن حاتم قادمة من فيد الى النباج ، على فرض

أن حاتماً عاد الى أهله بعد قتال الردة ، أو أنه ذهب الى قبائل طيء ليحثها على النفير لحرب العراق .

ج ــ المثنى وجماعته في خَفّان

د ــ سويد وجماعته في أطراف البصرة

هـ ــ مذعور بن عدي متحفزاً للالتحاق بجيش خالد

و ــ جماعات أخرى من هنا وهناك ، بلغها خبر سفر خالد لحرب العراق ، فسارعت من كل جهه للالتحاق به

(٢) جند الفرس :

ا ــ جند هرمز في الأُبُلَّة ، والمرابطون من رجاله في مسلحة كاظمة ومسلحة الخريبة .

ب ــ مسلحة الولجة

ج ــ مسلحة أُلّيس

د ــ جند الحيرة من أهل الحيرة والفرس بقيادة أزاذبه حاكم الإمارة

هـ ــ مسلحة عين التمر ، وفيها رجال من الفرس ومن بني تغلب

و ــ قوات فارسية في المدائن ومراكز أخرى

خالد في طريقه من النباج الى أرض البصرة : وكان هدف خالد الأول ، بعد وصوله الى النباج ، أرض البصرة والطريق الأقصر الذي يربط اليمامة بالبصرة يمر بالنباج كما قدمنا ، والغرض من أرض البصرة هو ثغر العراق « الأُبُلّة » ، وقد أشارت الروايات الى أن أبا بكر أمر خالداً أن يبدأ بالأُبُلّة ، وهو فرج السند والهند والواضح من تلك الروايات أن أرض البصرة ، كانت أول هدف اختاره خالد في حركاته

ومن المفيد أن نذكر ما كتبه (ميوسل) في هذا الشأن ، قال ميوسل : « ولأجل التوصل الى رأي صحيح عن الروايات المرتبكة التي رواها رواة المدينة ، ينبغي لنا أن نتثبت قبل كل شيء من اشتراك المثنى مع قبيلته في حروب خالد مع الفرس إن الحجج التي أدلينا بها آنفاً ستنال تأييداً آخر ، تجعلنا نؤكد أن خالداً لا يستطيع أن يقدم على حركة ما ضد الفرس من غير مساعدة

قبائل بكر بن وائل واذا قبلنا أن رجال هذه القبيلة ساعدوه ، لزم أنهم غزوا قبل كل شيء ، المواضع التي تخرج منها القوافل التجارية التي تمر بأرضيهم متوجهةً الى الجنوب والجنوب الغربي أو الى المغرب والغرب الشمالي ، والمكان الذي تخرج منه القوافل يسمى « الأُبُلّة » ، تصدر منه أمتعة متنوعة الى مكة والى المدينة . ولا بد أن خالداً علم شيئاً كثيراً عن تلك القبيلة سواء حيثما كان في اليمامة أو في النبّاج ، وأخيراً وجد نفسه في الطريق الذي تستعمله القبيلة عادةً وإذْ لم يتلق تعليمات صريحة من أبي بكر في أي طريق يسير ، أصبح حراً في اختيار الطريق ، لهذا سار من النباج على طريق القافلة الى الأُبُلّة ، ومنها ذهب لمساعدة بكر بن وائل في غزواتها للقرى الفارسية (١) »

ويتبين من رواية قاضي الكوفة المغيرة بن عتيبة أن جيش خالد اجتمع في النباج ، ومنه تحرك تدريجاً الى الأُبُلّة ، سرح المثنى على رأس رجاله ، وسرح بعده عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ، أحدهما قبل صاحبه بيوم ، وخرج خالد بعدهم

لا نظن أن الحركة جرت كما ذكرها المغيرة بن عتيبة ، ولم يذكر هذا الراوي شيئاً عن مذعور وسلمى وحرملة ولا نعتقد أن النباج يتحمل حشد قوة كبيرة تبلغ ثمانية آلاف ما عدا الأتباع ، وكان الوقت كما ذكرنا من قبل بعد منتصف نيسان ، وفي هذا الوقت ينقطع المطر ثم لماذا لا يأتي المثنى مع جنده الى النباج ، ويتقدم بعد ذلك الى الحفير كما أشارت اليه الرواية ؟ والمسافة بين النباج وخفّان نحو من ست مئة كيلو متر واذا كان خالد جعل الحفير هدف الفرق الثلاث حقاً ، فينبغي للمثنى أن يتقدم لوجهه الى الحفير وفي اشارة الراوي الى أن الفرق تقدمت الواحدة بعد الأخرى ، دليل على أن الطريق بين النباج والحفير لا يتحمل مسير قوة كبيرة فيه ؛ لأن المنازل بين هذين الموضعين ليس فيها ماء كثير والحُفَيْر – كما ذكره ياقوت – منزل من البصرة لمن يريد مكة ، وهو واقع في بطن وادي الرمة ، وفيه مياه غزيرة ، في منتصف طريق (النباج – الأُبُلّة) ، والمسافة بينهما زُهاء ست مئة كيلو متر وما دامت القوات التي ألفت جيش خالد ترابط في مواضع مختلفة في النباج ، وبينه وبين فيد وخفّان وأماكن غير بعيدة عن

(١) ميوسل : الفرات الأوسط (ص ٢٩٢) .

النباج كما أشرنا ؛ وما دام الحفير هو مركز التجمع لتلك القوات ، فالمقول أن تسير هذه القوات من مواضعها الى الحفير على طرق مختلفة ، كأنْ يتوجّـه خالد بمن معه من النباج ، والمثنى من خفّان ، ورجال طيء بين فيد والنباج يسرعون الخطا وراء خالد ، وكذلك القوات الأخرى تسير رأساً الى الحفير ، وهذا المسير من مواضع مختلفة نحو مركزٍ واحد ، أي الحركة على الخطوط الخارجة كما يعبر عنه استراتيجياً ، ينطبق على ما رواه المغيرة بن عتيبة

الأمراء الذين رافقوا خالداً في قتاله في العراق : رافق خالداً رؤساء أمرهم في بعض أعماله والذين وردت أسماؤهم في الروايات هم أربعة ، أثبتهم سيف بن عمر ، وهم : حرملة ، وسلمى ، والمثنى ، ومذعور أما المثنى ومذعور ، فمن رؤساء بكر بن وائل وأما حرملة وسلمى ، فلم يرد أسماؤهما في أعمال خالد كما أشرنا الى ذلك سابقاً وروى المغيرة بن عتيبة فذكر اسم المثنى وعدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ، وجعل كلاً منهم أميراً على فرقة من جيش خالد وهناك أمراء آخرون وردت أسماؤهم في أعمال خالد فإما أنهم أوفدوا على رأس قوة للغزو ، وإما أنهم شاركوا خالداً في قتاله ، أو تولوا بعض أعماله ، وشهدوا كتب الصلح التي كتبها خالد ابن الوليد ومن هؤلاء رجال من بني تميم ومن أسد ومن طيء ومن هوازن ومن مزينة ومن الأنصار ، وهم :

هشام بن الوليد ، وحنظلة بن الربيع ، والقعقاع بن عمرو التميمي (وورد اسم هشام وحنظلة في شهادتها لكتب الصلح أما القعقاع ، فقيل عنه : إنه لما أذن أبو بكر لأهل المدينة بالرجوع الى أهلهم بعد قتال اليمامة أمد خالداً بالقعقاع ، فقال له الصحابة : أتمدّ رجلاً قد ارفض عنه جنوده برجل ؟ فقال أبو بكر : لا يهزم جيش فيه مثل هذا) وعبد الله بن وثيمة النصري ، وبشير بن الخصاصية ، وسويد بن مقرن المزني (بعثهم خالد عمالاً) ، والأقرع بن حابس (جعله أميراً على مقدمته في سفره لنجدة عياض بن غنم) ، وبشير بن سعد ، ومحمد بن مسلمة (الأنصاريان اللذان شهدا بأن الرسول وعد خريم بن أوس الطائي أن يعطيه ابنة بقيلة اذا فتح الله عليه الحيرة) وبسر بن أبي رهم ، وسعيد بن مرة العجلي (اللذان كانا رئيسي الكمين الذي رتبه في الولجة) وضرار بن الخطاب ، وضرار بن مقرن (اللذان عينهما خالد أميرين للثغور

مع آخرين) ، وورد اسم ضرار بن الأزور الأسدي بينهم (ولكن لم تتفق الروايات على اشتراكه مع خالد في حرب العراق ، ويقال انه استشهد في اليمامة) ، وكذلك ورد اسم جرير بن عبد الله البجلي (ولكن الثابت أنه شهد حرب العراق على رأس قومه في خلافة عمر ، وكان قد فضل الذهاب الى الشام بدلاً من العراق ، ولكن عمر شوقه للذهاب الى العراق وخصص به نصيباً أكثر من الغنائم) ، وورد اسم أبي ليلى بن فدكي ، وعصمة بن عبد الله أحد بني الحارث (أمرهما خالد في بعض أعماله) وكان جابر بن طارق ، والحجاج بن ذي العنق ، ومالك بن زيد ، ممن شهدوا كتب البراءات لأهل الخراج وورد اسم معقل بن مقرن المزني (الذي زعم سيف بن عمرو عن أبي الهيثم البكائي أن خالداً بعثه الى الأبلة ليجمع له ما لها والسبي) ، وكذلك اسم شريح بن عامر من هوازن (استخلفه خالد في الخريبة)

والواضح من الأعمال التي نيطت بهؤلاء الرجال أنهم كانوا من المتقدمين ، وكانوا إما رؤساء الجنود الذين ألفوا جيش خالد ، وإما ممن لهم حق الرئاسة

ومن معرفة القبائل التي ينتمي اليها هؤلاء ، تتيسر معرفة القبائل التي انضمت الى خالد في طريقه من اليمامة الى العراق

مسير خالد من النباج الى أرض البصرة : ذكرنا آنفاً أن الرواية التي روت أن الحفير كان منطقة التجمع لقوات خالد المتفرقة ، هي رواية تنطبق على الواقع وكان الحفير في منتصف طريق (النباج ـ الأبلة) ، وهو يبعد عنها زهاء ثلاث مئة كيلو متر ، وفيه مياه غزيرة ، لهذا يصلح أن يكون منطقة تجمع للقوات التي ثبتنا مواضعها ، أي النباج وفيد وخفان ومحلات أخرى ليست ببعيدة عن النباج

أصحيح أن الحفير أصبح فعلاً منطقة التجمع قبل الشروع في الهجوم على أطراف البصرة ؟

لأجل التثبت من ذلك ، ينبغي معرفة موقف الفرس في منطقة البصرة كان قائد الفرس في هذه المنطقة هرمز ، مقره الأبلة مركز فرج السند والهند كما ذكره الرواة وأشاروا الى أن هذا الفرج هو أعظم فروج فارس شأناً ، وأشدها شوكة وقالوا إن صاحبه هرمز كان يحارب العرب في البر ، ويحارب الهند في البحر ويتبين من ذلك أن الفرس اهتموا بهذه

الناحية ولا بد أنهم خصصوا لها قوة كافية ولعل حامية الأُبلّة ، كانت أقوى الحاميات في أرض السواد ، لقربها من البادية ، ولكونها ميناء العراق الرئيس الذي تمتارْ القوافل منه الأمتعة التجارية الواردة بالبحر ، فضلاً عن أن المنطقة المذكورة كانت غنية بالتمور وكان لا بد للقائد الفارسي أن يكون على علم تام بما يجري في بلاد العرب ، وقد تتبع أخبار الحروب الداخلية التي شنت فيها ، واستخبر انتصارات خالد ، وعلم قدومه من اليمامة الى النباج ولا شك في أن العيون ، وأكثرهم من عرب الضاحية ، كانوا يزودونه تلك الأخبار وكانت مدينة الأبلّة واقعة على ملتقى نهرين : دجلة البصرة (أي شط العرب) من جهة ، ونهر الأُبلّة من جهة أخرى وكان هذان النهران يحميانها من الناحية الشمالية والشمالية الغربية ومن الناحية الغربية وقال ياقوت عنها إنها بلدة تقع على شاطيء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة وكانت حينئذٍ مدينة فيها مسالح من قِبَلِ كسرى وقائد ، وذكر ابن الفقيه أن أردشير أعاد بناءها ، وأقام أخلافه مسلحة فيها ولقد قاومت مقاومة عنيفة سنة ١٤ هـ ، ولا بدّ أن سوراً كان يحميها من جهة البر وكان لها مسلحتان كما ذكرنا : مسلحة من الناحية الغربية ، وهي الخريبة ، وهي واقعة في أطراف الزبير ، وهي بمثابة حصن يستر الأُبلّة من جهة الغرب ، ويسد طريق (خفان ـ البصرة) وطريق (الحُفير ـ البصرة) والمسلحة الثانية ، كاظمة الواقعة في منتهى خليج الكويت ، وهي بمثابة حصن يسد الطريق القادم من اليمامة الى البصرة محاذياً لشاطيء البحر .

وفي الروايات ما يشير الى أن هرمز علم أن العرب تواعدوا الحُفَير ، فنزل فيه ، وتعبى به واذا صحت هذه الرواية ، دلّت على أن جيش خالد لم يجتمع في الحُفير ، وأن هرمز أراد أن يباغته فيها ، ولكننا نجزم بأن الخبر غير صحيح ؛ لأنه لا يعقل أن هرمز يبتعد عن قاعدته الأُبلّة ثلاثمئة كيلو متر ، ويرمي بقوته في البادية ، وهو يعلم أن العرب سادة الموقف فيها ، واذا خسر المعركة في البادية فتقع منطقة البصرة جميعها مع القاعدة في يد العرب لهذا لا بدّ أن قوات خالد تجمعت في الحُفير ، وتقدمت بعد ذلك الى أرض البصرة ولا خطر على جيش خالد حين اجتماع القوات في الحفير ، لأن سويد بن قتادة أو قطبة بن قتادة الذهلي من بكر بن

وائل ، يستر هذا التجمع بقوته التي كانت مرابطة في أرض البصرة

ولعل التجمع جرى على الصورة الآتية :

سبقت قوة المثنى ، ووصلت قبز قوات خالد ، وسارت قوة طيء بقيادة رئيسهم على طريق (فيد ـ الحفير) ، ووصلت الى الحفير بعد خالد ويجوز أن قوات أخرى بقيادة رؤسائهم وصلوا الى الحفير من اتجاهات أخرى بحسب أماكن تجمعها والتقدم الى الحفير من اتجاهات مختلفة ، راحة للأرض ؛ لأنها لا تتحمل مسير قوات كبيرة فيها ، لقلة المياه المتيسرة

وقعة كاظمة : وفي الرواية التي رواها الشعبي ، أن خالداً كتب الى هرمز يحذره ألا يلومن إلا نفسه اذا لم يُسلِمْ أو يقرر الجزية ، لأنه جاء بقوم يحبّون الموت كما يحبّ قوم هرمز الحياة وتشير الرواية الى أن هرمز بعد تسلّمه الكتاب ، جمع جموعه ، وقدم حلبته الى كاظمة وأسرع اليها ولما علم في طريقه أن المسلمين تواعدوا الحفير ، مال اليه [1]

واذا صحت الرواية ، دلّت على أن هرمز كان يتوقع مجيء خالد من الحفير بالاتجاه الجنوبي الغربي ، والى كاظمة من الاتجاه الجنوبي ، الأمر الذي يدل على ان المسلمين كانوا يضللون أعداءهم في اشاعة الأخبار المضللة عن تقدمهم ان ارسال خالد انذاراً الى هرمز قد يتنافى مع تضليل العدو ، ولا سيما أن خالد بن الوليد اعتاد أن يخفي وجهة حركته عن عدوه ، لأنه كان يسعى لمباغتته وقبل قتاله لأهل الردة في بزاخة ، سلك طريق بلاد طيء ، وبذلك أخفى وجهة حركته ولكن من جهة أخرى كان قادة المسلمين في فتوحات صدر الاسلام ، كثيراً ما ينذرون عدوّهم قبل القتال ، ويخيروهم بين الدخول في الاسلام أو أداء الجزية ، وا لّا القتال عملاً بوصية الخليفة لهم ولهذا لا نستبعد أن خالداً أرسل ذلك الكتاب الى هرمز مع أحد رجاله ، ولا بد أنه كتم محل خالد .

والذي يتتبع أخبار القتال في كاظمة يظهر له أن خالداً بعد مسير جيشه من الحُفَير ، بدل وجهته ، فلم يَسرْ على طريق الأُبلّة الذي كان قائد الفرس يتوقع أن تسلكه القوات العربية ، وإنما توجه نحو كاظمة ، ليضلل عدوه ويستطيع مباغتته ويبدو أن عين خصمه كانت ساهرة ، لهذا ما إن علم من عيونه أن خالداً أمال الناس الى كاظمة حتى بادره فيها وفي أطراف

(١) تأريخ الطبري (٢/٥٥٤ ، ٥٥٥)

هذا الموضع ، نشب القتال بين المسلمين والفرس لأول مرة ، وكانت الغلبة للمسلمين

وقد أشرنا الى أن كاظمة كانت مسلحة للفرس ، واقعة على سيف البحر ، وفيها ماء مشروب كما وصفها ياقوت ترى لماذا فضل خالد التوجه الى كاظمة بدلاً من السير بوجهه من الحفير الى الأُبلة ، أكان هذا الطريق شحيح المياه ؟ أم أراد أن يباغت كاظمة ، ويستولي عليها ، ويجعلها قاعدة حركته في الإغارة على الأُبُلَّة ؟ ولكن الأخبار تدل على أن عدوه هرمز سبقه اليها ، وكان الماء بيده ، فاضطر خالد أن ينزل على غير ماء ، وبهذا أصبح موقفه حرجاً ، وقد انتقده أصحابه على ذلك ، وكان جوابه لهم مضرب المثل ، اذ قال لهم : « جالدوهم على الماء ، فلعمري لَيَصيرَنَّ الماء لِأصبرِ الفريقين ، وأكرم الجندين »

لا نريد أن نتوسع في أخبار القتال ، وفيها على ما يبدو تفصيلات مصطنعة ، كاقتران رجال هرمز بالسلاسل وبراز هرمز لخالد ، والخبر الوارد عن فتح المسلمين للأُبلة ... والثابت أن الأُبلة فتحت في خلافة عمر على يد عتبة بن غزوان وبعد ، فهي مدينة حصينة كما قدمنا ، ولكن القتال أدى الى هزيمة الفرس ، فانفتح بذلك طريق البصرة بوجه المسلمين وذكر الطبري أن خالداً لما زحف الى هرمز ، ولاقى صفوفه ، أرسل الله سَحابة ، فاحدرت ما وراء صف المسلمين ، فقواهم بها ، وما ارتفع النهار الا وفي الغائط مقترن والخبر هذا يدل على أن الموسم كان نهاية الأمطار ؛ لأن المسلمين لم يتوقعوا نزولها وأشار البلاذري الى قتالٍ جرى بين خالد وأهل الأُبلة ، وذلك أن سويد بن قتادة الذهلي ، الذي كان يفعل بالبصرة ما يفعله المثنى بالحيرة ، قال لخالد إن أهل الأُبلة قد جمعوا اليّ ، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك ، قال له خالد : فالرأي أن أخرج من البصرة (يقصد أرض البصرة) نهاراً ، ثم أعود ليلاً فأدخل عسكرك بأصحابي ، فإن صبحوك ، حاربناهم ففعل خالد ذلك ، وتوجه نحو الحيرة فلما جن الليل ، انكفأ راجعاً ، حتى صار الى عسكر سويد ، فدخله بأصحابه ، وأصبح الأُبُلّيون ، وقد بلغهم انصراف خالد عن البصرة ، فأقبلوا نحو سويد . فلما رأوا كثرة مَنْ في عسكره ، سُقِط في أيديهم ، وانكسروا (١)

(١) البلاذري : ص (٢٤٣)

لا يشير البلاذري الى قتال كاظمة . وبخبره الآنف الذكر ، يثبت وقعة جرت بين خالد وأهل الأُبلّـة في أطراف البصرة ، هل وقعت هذه الوقعة قبل قتال كاظمة أو بعدها ؟ وفي كلا الأمرين كان الأُبلّـيون يعلمون قدوم خالد الى أرض البصرة ، كيف غرروا بقومهم ؟ والغريب في هذا الأمر أن الطبري لم يشر الى هذه الحادثة ، مع أنه كتب تأريخه بعد البلاذري ، والمفروض أنه اطلع على كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وهو لا يترك شاردة ولا واردة إلّا أحصاها في تأريخه ويورد البلاذري أن خالداً مـرّ بالخريبة ، بعد القتال في أطراف الأُبـلّة ، ففتحها ، وسبى مَنْ فيها ، واستخلف بها شريح بن عامر من هوازن وكانت الخريبة مسلحة للفرس كما بينا ، وهي واقعة أطراف الزبير ، وذكر ياقوت في سبب تسميتها بالخريبة أن المرزبان كان قد ابتنى بها قصراً ، وخُرب بعده ولما نزل المسلمون البصرة ، ابتنوا عنده ، وفيه أبنية ، وسموه الخريبة[1] والأخبار تدل على أن خالداً جعل المثنى على مقدمته بعـد قتال كاظمة ، فانتهى المثنى الى نهر المرأة ، وهو ـ كما يظهر ـ أحد الأنهار التي تستقي الماء من دجلة (شط العرب) بالمدّ ، وهي كثيرة ، وفتح حصنها

ويشير سيف بن عمر ، وكذلك البلاذري ، الى قتالٍ جرى في المذار بعد وقعة كاظمة ، ويزعم أن فارس قتلت في المذار مقتله عظيمة ، وأن عدد القتلى كان ثلاثين ألفاً وفي رأينا أن الخبر هذا غير صحيح ؛ لأن المذار ، وهو قاعدة كورة ميسان ، يقع جنوبي العمارة بالقرب من قلعة صالح ، وللوصول اليه ينبغي لقوات خالد أن تعبر مياه الفرات التي تجري من البطـائح الى دجلة العظمى (أي شط العرب) ، وهذا ليس بمستطاعٍ خالد في موقفه يومئذ والثابت أن كورة ميسان ، فتحت في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان ، وقد أشار الطبري الى هذا في حوادث سنة ١٤ هـ وذكر ياقوت في مادة (المذار) أن عتبة بن غزوان فتحها في أيام عمر بعـد فتحه للأُبُـلّـة ويتبين مما أورده الطبري أن خالداً بعد أن خلف سويد بن قتادة الذهلي على البصرة ، أقام في (الثني) ولسنا نعرف موضع الثني تمام المعرفة ، ولـكن العرب كما قال الطبري تسمي

(١) ومما ذكره ياقوت في مادة الخريبة نقلا عن حمزة أن البصرة بنيت على طرف البر الى جانب مدينة عتيقة من مدن الفرس كانت تسمى (وحشتا أباذ أردشير) ، نخربها المثنى بشن الغارات عليها فلما قدمت العرب البصرة ، سموها الخريبة ، وعندها كانت وقعة الجمل

كل نهر الثني والأنهار بين الأبلة وملتقى دجلة العظمى بنهر دجلة العوراء ، كثيرة وكذلك في قسم دجلة بين الملتقى والبطائح في أي نهر من هذه الأنهار أقام خالد ليشرف على إدارة الأرض التي افتتحها ورتب جباية الخراج عنها ؟ يلوح لنا أنه أقام على أحد أنهر ذلك القسم ؛ لأنه أقرب الى الأهداف التي اعتزم خالد المسير اليها . أقام خالد في ذلك الموضع يسبي عيالات المقاتلة ومن أعانهم كما ذكر الطبري ، وأمر في الوقت نفسه المثنى أن يغير على الأطراف للحصول على الأرزاق والميرة لجيشه ، وأمر الفلاحين ومن أجاب الى الخراج ، فأجابوه ، وصاروا ذمة ، وصارت أرضهم لهم ؛ وكان في السبي أبو الحسن أي أبو الحسن بن البصري[١] ألا تدل أعمال خالد هذه على أنه اعتزم فتح العراق ، لا الإغارة عليه للنهب والسلب كما زعم (كيتاني) ؟

وبينما كان خالد ينظم إدارة البلاد في الثني ، ويتخذ الحيطة اذا راجع بإقامة قوة في الحفير ، كان في الوقت نفسه يتجسس أخبار العدو وجاء في الطبري أن خالداً في طريقه الى خفان أمر على الجند سعيد بن النعمان ، وجعل سويد بن مقرن المُزَني رِدْءاً له ، كما طلب اليه أبو بكر ، وأمره بنزول الحُفير[١] ويظهر من ذلك أن خالد بن الوليد سار من أرض البصرة متوجهاً الى الحيرة على طريق خفان حذراً ومتيقظاً ، فخلف سويد بن قتادة الذهلي في البصرة ، وعينه قائداً على الجند في تلك الأرض ، وأقام ردءاً له في الحُفير ليحمي ظهره ، ويحتفظ بخطوط مواصلاته بالحجاز ، ويبث العيون ليتجسسوا له الأخبار

ومن المفيد أن نذكر أن حركات خالد هذه كانت تجري في أواخر الفترة المضطربة التي سادت بلاد فارس يومئذٍ ، وكان المتنفذون من أشراف فارس يخلعون ملكاً أو يقتلونه وينصبون ملكاً آخر مكانه ، وكانت قبيل أن يتفق الأشراف على تنصيب يزدجرد بن شهريار ملكاً ، وهو ما يزال صبياً وذكر المستشرق الألماني نولدكه أن جلوس يزدجرد على العرش الساساني تم في أوائل سنة ٦٣٣ م ، أي في أواخر سنة ١٢ هـ ، ولكن أخبار الطبري تنفي ذلك لقد جرت حركات خالد في العراق في أوائل سنة ١٣ هـ ، أي في أوائل سنة ٦٣٣ م ، وكان الذي يتولى الملك في هذه السنة كما أثبته الطبري أردشير الذي مات في هذه السنة . أما (كيتاني) ، فذكر في

(١) تأريخ الطبري ص (٨٠٥)

تاريخه (حوليات الاسلام) أن أردشير حكم سنتين : سنة ٦٢٨ م ، وسنة ٦٢٩ م اللتين تصادفان سنة ثمان وسنة تسع للهجرة ولكن الطبري يؤكد أن أردشير كان على عرش فارس قبل فتح المسلمين للحيرة واذا صحت رواية الطبري ، فيكون الفرس في أسوأ عهودهم حينما هاجم خالد بلادهم ؛ لأنه تولى الملك بعد أردشير زهاء ثمانية ملوك في فترة قصيرة ، وهم كما ذكر كيتاني : شهربراز ، وبوران ، وجشنسده ، وآزرميدخت ، وكسرى الثالث ، وخرزاد خسرو ، وفيروز الثاني ، وهرمز الخامس وتولى الملك بعدهم يزدجرد ، فاستقرت الأمور في أوائل عهده بعض الاستقرار

وقعة الولجة [أنظر خارطة الفرات الأوسط] : إن انتصار خالد على هرمز قائد فرج السند والهند في كاظمة ، ومروره مر الخاطف بالأبلة ، وفتحه لحصني المرأة والخريبة ، كل ذلك نبه الفرس على الخطر الذي أخذ يهدد ممتلكاتهم في العراق ، فأيقنوا أن الحركة هذه ليست حركة غزو واغارة طارئة مما كان العرب يقومون به من وقت لآخر لجر مغنم ثم ينسحبون الى البادية . لهذا نشاهد الفرس يجمعون ما تيسر جمعه من قوى ، ويوجهونها الى الجهة التي يجاهدون فيها لمنع تقدم خالد الى إمارة الحيرة ، فاختاروا الولجة لهذه الحركة

والولجة ـ كما بينا سابقاً ـ مسلحة من مسالح الفرس ، واقعة على طريق (البصرة ـ خفان ـ الحيرة) ، وقد ثبتناها بعين ضاحك الواقعة الى جنوب غربي الشنافية ، وهي من عيون الطف كما ذكره البلاذري ويبدو أنها كانت على الحافة الشرقية للأرض العالية التي تحد أرض العراق من ناحية الغرب ، لهذا لم تصل اليها مياه البطائح ذكر الطبري أن أردشير ملك فارس لما اطلع على خبر هزيمة الفرس ، أرسل القائد أندرزغر (وهو فارسي من مولدي السواد ، وكان قائداً على فرج خراسان ، ولعله كان على رأس القوة التي تحمي المملكة الفارسية من هجمات الهياطلة ، أي قبائل الهون البيض الذين كانوا يهاجمون المملكة من ناحية الشرق) ولم يكتف أردشير بارسال هذا القائد ، بل أرسل في أثره قائداً آخر يدعى (بهمن جاذويه) على رأس جيش ، وطلب اليه أن يتعقب طريق أندرزغر الذي خرج من المدائن سالكاً الطريق الأقصر ، ماراً

(١) تأريخ الطبري : ص (٥٥٨)

بكورة كسكر ، حتى بلغ الولجة أما بهمن جاذويه ، فبدلاً من أن يتعقبه ، غيّر طريقه ، فسلك وسط السواد ، وجمع قوة من العرب الموالين للفرس أوعرب الضاحية (كما أشــــار الطبري) والدهاقين ، وأمدّ بهم أندرزغر ، فعسكر هؤلاء الى جنب جنده في الولجة

وكان خالدعلى علم بما يجري في بلاد العدو فلما بلغه نزول أندرزغر بالولجة ، تقدم من الثني اليها ذكر الطبري أن خالد بن الوليد تقدم الى من خلف في أسفل دجلة ، وأمرهم بالحذر وقلة الغفلة وترك الاغترار ، وخرج سائراً نحو الولجة (١) ويتبين من الأخبار أن أندرزغر أغتر بقوته وبمن التفّ حوله من أهل البلاد من عرب ودهاقين ، فبدلاً من أن يبقى في الولجة وينتظر ورود جيش بهمن جاذويه ويتخذ التدابير لمقابلة جيش خالد ، تقدم بقوتـه نحو خالد عملاً بالخطـة التي كان يسير عليها قادة الفرس في العراق لضرب العرب في عقر دارهم ، فتوغل في البادية أما خالد ، فكان يعلم أن عدوّه يفوقه عدداً وعدةً ، فاتخذ خطة مفاجأته ، وتقدم ببعض جنده نحو أندرزغر ، ورتب كمينين في ناحيتين ، جعل عليهما : بسر بن أبي رهم ، وسعيد بن مرة العجلي وذكـر الطبري أن القتال في الولجة جرى في صفر ، وهذا ينطبق على ما بينا سابقاً أن خالداً بلغ أطراف البصرة في أوائل صفر بدأ القتال باصطدام قوة خالد بجيش أندرزغر وبمن التف حوله ، وجاء في الرواية أن الفريقين اقتتلا قتالاً شديداً حتى ظنّـا أن الصبر قد أفرغ (٢) : الفرس يريدون أن يهزموا المسلمين ويبعدوا خطرهم عن أرض الســواد ، وخالد يجالد بقوته الصغيرة ليـكسب الوقت حتى يظهر كميناه من جانبي العدوّ ، وقد استبطأ كمينه كما أشارت الرواية وأخيراً خرج الكمينان ، وكان خروجهما في وجهين مفاجأة للفرس لم يُعدّوا العدة لها ، مما أدى الى اندحارهم ، فولّـوا مهزمـين ، فأخــذهم خالد من بين أيديهم والـكمين من خلفهم ، ومضى أندرزغر في هزيمته فمات عطشاً وذكرت الروايـة أن خالداً قام بعد الانتصـار خطيباً في الناس يرغبهم في بلاد العجم ، ويزهدهم في بلاد العرب ، وقال لهم : « ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ، ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع

(١) تأريخ الطبري : ص (٥٥٩) . (٢) تأريخ الطبري (٢/٥٥٩)

على هذا الريف حتى نـكون أولى بـه ، ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه[(١)] » وخطاب خالد هذا ، يسفّه رأي (كيتاني) في أن المسلمين لم يقصدوا بغزوهم للعراق إلا السلب والنهب ، بيما نشاهد خالداً يحث المسلمين على فتح البلاد ، لتصبح لهم ، يعيشون على خيراتها

وقعة أليس : تقع أُلّيس على صلب الفرات في ضفتـه اليمنى ، وقد ثبتنـاها في غرب شمالي الشنافية على بعد زهاء عشرين كيلو متراً ، وكانت مسلحة لمدينة أمغيشيا الواقعة الى شمالها عسافة زهاء خمسة كيلو مترات على الضفة اليمنى أيضاً ، وكانت مصراً كالحيرة كما ذكر الطبري ، . وكان فرات بادقلى من شعب الفرات ينتهي اليها ولقد علم بهمن جاذويه القائد الفارسي بهزيمة الفرس في الولجة ، وكان وقتئذٍ في قسياثا البلد الذي ثبتنا موضعه في غربي النخيلة على الضفة اليمنى من الفرات ، وكان هذا القائد قد نيطت به مهمة الدفاع عن أرض السواد ضد المسلمين ، وكان قد قدم أندرزغر الى الولجة ، وبقي هو في أرض السواد بدلاً من أن يسرع الى الوجـه الذي كان المسلمون يتقدمون نحوه ويضم قواته الى قوة أندرزغر ويتبين من الأخبار أن بهمن جاذويه ، كان القائد الأعلى في العراق ، وكان أندرزغر في إمرته ، وجّهه الى الولجة على أن يلتحق به ففي هـذه المرة أيضاً نرى أن بهمن جاذويه يـكتفي بارسال قائدٍ فارسي آخر يدعى جابان الى أُلّيـس ، ويذهب هو الى المدائن ليجتمع بأردشير ، ويتلقى أوامره . فوجده مريضاً ، فانصرف عن الأمر الذي كُـلِّفَـهُ ، وترك جابان وحده ، وكانت وصاياه لقائده هذا : أن يتقدم نحو العرب ، ولا يقاتلهم حتى يلتحق به هو وجيشه ، إلا اذا عاجلوه

ويبدو أن بهمن جاذويه كان يحترس من الاشتراك بنفسه في القتال ، إما لقلة قواته ، فاكتفى بارسال من استطاع أن يحشره ويرسله على عجل ليحول دون تقدم المسلمين ، وإما لأنـه كان على علم بما يجري في البـلاط الفارسي من دسائس ومؤامرات ، فأراد أن يـكون قريباً من العاصمة ، ليكون له نصيب في تلك المؤامرات ، وهذا يدل من غير شك على ضعف قوة الفرس في العراق من جهة وعلى انصراف القادة عن الاهتمام بأمر الدفاع وربـعهم بما يجري في البلاط .

وكان مقاتلة خالد لعرب الضاحية الذين انضموا الى أندرزغر في الولجة مما أثار حفيظة بني

(١) تأريخ الطبري : (٢/٥٥٩) .

قومهم من النصارى ؛ لأن خالداً أصاب في تلك الوقعة نصارى بكر بن وائل ، فانتهز الفرس هذه الفرصة ، فكاتبوا الحانقين على خالد ، وأمالوهم الى جانبهم ، وحشروهم في أُلَّيس بقيادة عبد الأسود العِجْلي من بني عجل وتيم اللات وضبيعة ، وانحاز إلى الفرس عربُ الضاحية من أهل الحيرة ، وساند جابر بن جبير ومالك بن قيس عبد الأسود ، وبذلك اجتمعت قوة غير قليلة من نصارى العرب ومن ساندهم في أُلَّيس وكان لابد للمسلمين من بني عجل أن يكونوا أشد الناس على أولئك النصارى ، ومن هؤلاء المسلمين عتيبة بن النهاس وسعيد بن مرة وفرات بن حيّان والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدي أحد رؤساء بني عجل

أما القائد الفارسي جابان ، فيظهر أنه اغترّ بالقوة العربية التي انضمت اليه ، فسار الى أُلَّيس بجنده غير منتظر التحاق بهمن جاذويه به . والذي يستفاد من الروايات أن خالد بن الوليد كان قد بلغه تجمع عرب الضاحية ونصاراهم بقيادة عبد الأسود وجابر بن جبير ، فأراد أن يباغتهم قبل أن يدهم الجند الفارسي

وقعت معركة أُلَّيس في صفر كما ثبتها الطبري ، ولا بد أن تكون في نهايته ، وتقدم خالد بجيشه وهو لا يعلم بدنوّ جابان ، وتزعم الروايات أن جند جابان خالفوا أوامره أن يكونوا على أهبة القتال ، وبدلاً من ذلك بسطوا البسط ووضعوا أطعمة الغذاء وتداعوا اليها غير محتفلين بقوة خالد (١)

والمفهوم من سير القتال أن عرب الضاحية ونصاراهم كانوا في المقدمة ، وكان الفرس في المؤخرة ؛ لهذا نشب القتال أولاً بين جند خالد وبين هؤلاء العرب ، وبدأ بالبراز بين خالد وقيس ابن مالك ، فقتله خالد ولما علم الفرس بنشوب القتال ، تركوا طعامهم وتسارعوا الى نجدة من انضم اليهم من العرب ، فسرى لهيب الحرب بين جيش خالد وجيش جابان ، واشتد سعيرها وتذكر الرواية أنهم : « اقتتلوا قتالاً شديداً ، والمشركون يزيدهم كلباً وشدةً ما يتوقعون من قدوم بهمن جاذويه » ، ويدل ذلك على أن جابان كان يجهل انصراف بهمن جاذويه عن المهمة التي نيطت به

(١) الطبري : (٢/ ٥٦) .

ويبدو أن خالداً لقي في قتاله عنفاً من عدوّه جعله يقسم بالله لئن منحه أكتاف عدوه لن يستبقي منهم أحداً قدر عليه حتى يجري النهر بـدمائهم [١] ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على أعدائهم وتزعم الرواية أن خالد بن الوليـد برّ بقسمه عناداته رجاله أن يأسروا الأعداء ولا يقتلوا الا من امتنع ، فسيق الأسرى أفواجاً ، فوكل من يضرب أعناقهم في النهر وتذكر الرواية أن خالداً فعل بالأسرى ذلك يوماً وليلة ، واندفع رجاله يطلبون الأسرى حتى انتهوا الى موقع النهرين ، فضربت أعناقهم ، ولـكن دماءهم لم تجرِ في النهر ، حتى قال القعقـاع بن عمرو التميمي لخـالد : « لو أنك قتلت أهل الأرض ، لم تجر دماءهم ، إن الدماء لا تزيد على أن ترقرق منذ نهيت عن السيلان ونهيت الأرض عن نشف الدماء ، فأرسل الماء تَبَرَّ يمينك » ، وكان خالد قـد صد الماء عن النهر ، فأعاده ، فجرى دماً عبيطاً فسمي (نهر الدم) لذلك الشأن الى اليوم [١].

من العسير أن يصدق المرء هذه الرواية ؛ لأن قوة الفرس ، كما أثبتنا ، لم تـكن من الكثرة بحيث يأمر خالد بن الوليد بضرب أعناق الأسرى يوماً وليلة ، ويطلب رجاله الأسرى في غد المعركة وبعد الغد من كل الجوانب كما أشارت اليه الرواية ، وجاء فيها أن عدد القتلى بلغ سبعين ألفاً [٢] والذي يتراءى لنا أن القتال جرى في أطراف أُلّيس ، وهي واقعة على ضفة الفرات اليمنى ، وكان الموسم حينئذٍ موسم فيضان نهر الفرات ، لأن أشد أيام الفرات فيضاناً تقع في أيار وإذا كانت المعركة جرت في نهاية صفر سنة ١٣ هـ ، فهذا التأريخ يصادف منتصف أيار ، وهو الوقت الذي يكون الفرات على أشد فيضانه ويكون لونه أحمر باختلاط الطَّمْي فيه ، ولا يستبعد أن بعض الأعداء قتلوا ، وهم يحاولون اجتياز النهر ، فاختلط دمهم بماء النهر ، وظن بعض المسلمين الذين شـهدوا القتال أن النهر جرى دماً ، فانتقلت الأسطورة هذه من جيـل الى جيل ، فوصف الأخباريون ذلك بالصورة التي وردت في الروايات

روى سيف بن عمر أن خالداً لما فرغ من وقعـة أُلّيس أتى (أمغيشيا) ، وكان قـد جلا

(١) قال خالد : « اللهم ، إن لك علي إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى اجري نهرهم بدمائهم » الطبري : (٢/٥٦١)
(٢) الطبري : (٢/٥٦٢)

أهلها وتفرقوا في السواد ، فأمر خالد بهدمها ، لهذا لم يذكر جغرافيو العرب اسم أمغيشيا في مباحثهم كما أشرنا اليه من قبل ، لأنها كانت مندثرة في زمنهم وذكر ابن اسحاق أن أُلّيس سلّمت صلحاً على أن يكون أهلها عيوناً لعدو المسلمين وزعم (كيتاني) أن أُلّيس وأمغيشيا موقع واحد ، فرد عليه (ميوسل) ذلك كما أوضحناه في بحثنا في جغرافيا العراق زمن الفتح .

لقد تغلب خالد على جميع القوات التي استطاع الفرس أن يجهزوها على عجلة ، في مسيره من أطراف البصرة متوجهاً الى الحيرة سالكاً ضفة الفرات اليمنى ، وقد هزمها الواحدة تلو الأخرى وكان ارسال الفرس قواتهم تباعاً خطأً فاحشاً ، لأنهم بذلك مهدوا لعدوهم الغلبة السهلة ، فالتقمهم خالد لقمة لقمة ولعل سبب ذلك حالة الفوضى السائدة في البلاط الساساني من جهة ، وقلة استعداد الفرس للدفاع عن العراق من جهة أخرى ؛ وكانت الحروب التي وقعت قبل بضع سنين بينهم وبين البيزنطيين قد نهكت قواتهم ، وأخلت خزائنهم أضف الى ذلك أن (الهياطلة) ، أي قبائل الهون البيض ، انتهزوا فرصة ضعف الانبراطورية الساسانية ، فأخذوا يهددون حدودها الشرقية ، فاضطر ملوك ساسان الى إرسال خيرة جنودهم الى تلك الناحية

جرت حركات خالد في جنوبي العراق على نحو ما شرحنا استناداً الى الروايات التي روى معظمها سيف بن عمر كما ذكرها الطبري ، وهي تدل على أن المثنى بن حارثة الشيباني اشترك في الحركات جميعها وقد ثبت ابن الكلبي والبلاذري ، وهما من رواة المدينة ، أخبار خالد على النحو الذي فصلناه أما رواة المدينة الآخرون كابن اسحاق والواقدي ، فلم يشيروا الى هذه الحركات ، وقالوا : إن خالداً ذهب فوراً الى العراق من غير أن يمر بأرض البصرة ، ولم يذكروا فتحاً وقع قبل فتح قريتي (بانقيا) و (باروسما) ومدينة الحيرة ، ولم ينوهوا باسم المثنى

وقد لفت هذا الأمر نظر المستشرق الجيكوسلوفاكي (ميوسل) ، فعلله بأن المثنى بن حارثة كان مجهولاً في المدينة وفي مكة ، وأن إسلامه كان مشكوكاً فيه ، واذا كان أسلم حقاً فانه لا يعلم عن الاسلام الا قليلاً ، ولم تكن له صحبة ؛ لهذا تراءى لابن اسحاق والواقدي وغيرهما من رواة المدينة أنهم اذا أشاروا الى مساهمة المثنى خالداً في نشره راية الاسلام ، يكونون قد جعلوه ذا مفخرة ويضيف (ميوسل) أن رواة آخرين من مدرسة المدينة ذكروا اسم المثنى ، ولكنهم حاولوا

أن يقللوا من شأنه جهد طاقتهم في مساهمته خالداً في انتصاراته في العراق . وفيما كتبه (ميوسل) في رحلته (الفرات الأوسـط) اشارة الى أن ابن اسحاق وآخرين تعمدوا السكوت عن حركات المثنى في أرض البصرة وجنوبي الفرات للسبب نفسه

ومع أن بعض الروايات تشير الى أن المثنى وفد الى الرسول حينما عرض نفسه على القبائل بعد وفاة عمه أبي طالب ، وكان من القبائل بنو ذهل وفيهم المثنى بن حارثة الذي وصف يومئذ شيخهم وصاحب حربهم [(١)] ، وأنها تؤيد أنه أسلم وسعى في نشر الإسلام في قبيلته ، فان هناك ما يحمل على الشك في إسلامه زمن الرسول ، وذلك لبعد قبيلته عن المدينة ، ولعدم ورود خبر ما عن ارتداد قبائل بني بكر أو ثباتها على الاسلام في حروب الردة ، ولأن معركة أليّس تدل على أن النصرانية كانت قد انتشرت في هذه القبائل ، ولسكوت أصحاب السير عمن أرسل الى قبيلة المثنى لتعليم أحكام الإسلام فيها

زعم (كيتاني) أن سؤال أبي بكر عن المثنى يدل على أنه كان مجهولاً في المدينة ، أي لم يكن مسلماً أما البلاذري ، فذكر أنه لما عاد من المدينة بعد زيارته لأبي بكر ، عرض الاسلام على قبيلته ، وهذه اشارة الى أن قبيلته لم تكن مسلمة ومهما يكن الأمر ، فان انضمام المثنى الى جانب المسلمين أفادهم كثيراً ؛ لأن المسلمين أخذوا يصولون ويجولون في أرض كان أهلها يدلونهم على عورات العدو ، ويكونون ردءاً لهم ، ويحمون خطوط مواصلاتهم

ومن الطريف هنا أن نذكر ما كتبه أبو يوسف في كتابه الخراج عن فتح خالد للعراق ، وكان أبو يوسف معاصراً لابن اسحاق وسيف بن عمر ، وقد توفي سنة ١٨٢ هـ ، وتوفي سيف بن عمر قبله بسنتين فانه بعد ما ذكر كيف وجه أبو بكر خالداً الى العراق ، وبيّن القوة التي انضمت اليه من قبائل طيء في فيد ، قال :

« انتهى خالد الى شراف [(٢)] ، ومعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر ، فتعجب أهل شراف من خالد ومن معه ووغولهم في أرض العجم ، فانتهوا الى المغيثة ، فاذا طلائع خيل العجم ،

(١) الروض الأنف : (١/٢٦٤)
(٢) شراف : على طريق (المدينة ــ الحيرة) بين واقصة والقرعاء

فنظروا اليهم ورجعوا ، وانتهوا الى حصنهم ودخلوه ، فأقبل خالد ومن معه الى الحصن فحاصرهم ، وفتح الحصن وقتل من فيه من المقاتلة ، وسبى النساء والذراري ، وأخذ جميع ما كان فيه من السلاح والمتاع والدوابّ ، وهدم الحصن ، ثم مضى حتى انتهى الى العُـذَيْـب وفيه حصن فيه مسلحة لـكسرى ، فواقعهم خالد ، فقتلهم ، وأخذ ما كان في الحصن من متاع وسلاح ودوابّ ، وهدم الحصن ، وضرب أعناق الرجال ، وسبى النساء والذراري ، وعزل الخُـمْسَ مما أفاء الله عليه ، وقسم أربعة الأخماس بين أصحابه الذين افتتحوه فلما رأى أهل القادسية ذلك ، طلبوا الصلح ، وأعطوا الجزية فمضى خالد من القادسية حتى نزل النجف وبه حصن كبير لـكسرى فيه رجال من أهل فارس مقاتلة ، فحاصرهم ، وافتتح الحصن ، واستنزلهم ، ورئيسهم رجل من أهل فارس يقال له هرامزد ، فضرب عنقه ، واتكأ على جيفته ، ودعا بطعامه والآخرون مقرنون في السواجير فلما فرغ من طعامه ، ضرب أعناقهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وأخذ ما في الحصن من المتاع والسلاح والدواب ولم يكن في هذه الحصون التي افتتح أحصن منه ولا أكثر مقاتلة ولا سلاحاً ولا متاعاً ، ولا رجالاً أشد من رجال كانوا في حصن النجف ، فأخرب الحصن وأحرقه ، ثم بعث طليعة الى أهل أُلّـيس وفيها حصن فيه رجال مسلحة لـكسرى ، فحاصرهم ، وفتح الحصن ، وأخرج من فيه من الرجال ، وضرب أعناقهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وأخذ ما كان فيه من المتاع والسلاح ، وهدم الحصن وأحرقه فلما رأى أهل أُلّـيس ذلك ، وما صنع خالد بأهل الحصن ، طلبوا منه الصلح على أداء الجزية ، فأعطاهم ، فأدوا اليه الجزية ، ثم مضى الى الحيرة ... »[1]

هذا ما كتبه أبو يوسف عن حركات خالد في العراق من فيد الى الحيرة ، ويتبين منه أن أبا يوسف سيّر خالداً على طريق (المدينة ـ الحيرة) ، وأسهب في تفصيل الحركة ، وجعل خالداً لا يمر بقرية الا يجد فيها حصناً فيحاصره ، ويستنزل أهله ، ويقطع رقابهم ، ويسبي نساءهم وذراريهم هكذا فعل في المغيثة وفي العذيب وفي النجف وفي أُلّـيس كأنها قصة تتكرر وقائعها على نمط واحد

ويذكر أبو يوسف أن محمد بن اسحاق وغيره من أهل العلم بالفتوح والسير حدثوه

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج (١٦٩ ، ١٧٠)

بذلك ، وهو معذور فيما كتبه عن فتوح العراق ، لأنه لم يكن أخبارياً ولا من رجال السير ، إنما كان فقيهاً ومحدّثاً ، يسمع ما يقال له من أخبار المغازي والفتوح فيثبتها من غير تمحيص ؛ لأن الذي يهمه هو الفقه والحديث وقد شاهدنا فيما سبق أن روايات ابن اسحاق المذكورة في تاريخ الطبري لا تتضمن هذا الاسهاب ، ويبدو أن أبا يوسف خلط بين أمغيشيا أو امغيثيا والمغيثة ، وخلط بين هرمز قائد الأُبلّة وهرامزد الذي زعم أنه كان رئيساً لحصن النجف ، وجعل المقرّنين فى السلاسل من رجال هرمز فى كاظمة المقرنين فى السواجير في محاصرة حصن النجف ، وجعل كلاً من العذيب والقادسية والنجف مسلحةً فيها حصون وحاميات . وقد بدا لنا مما أوضحناه أن الفرس كانوا يومئذٍ في حالة ضعف ، ولم يكن لهم في هذه الناحية مسالح ، ولا سبيلٌ لمحافظة هذه المسالح البعيدة عن السواد صحيح أنه كان للفرس حامية فى عين التمر ، ولكنهم كانوا يقومون بحراستها بمؤازرة قبائل بني تغلب ، لأنها واقعة في أرضهم وصحيح أن العذيب كانت بيد الفرس بعد أن استقر الأمر في فارس واتخذوا التدابير للدفاع عن العراق حين اضطر المسلمون الى الانسحاب الى البادية بعد موقعة الجسر ، وقد وجدها سعد بن أبي وقاص بيد الفرس قبل معركة القادسية

وللمستشرق (ميوسل) نقدات على ما أورده أبو يوسف عن حركات خالد أحببنا إثباتها ، قال (ميوسل) : « إن في أخبار أبي يوسف متناقضات ، ومما يلفت النظر أنه لم يشر الى المثنى فيما أورده ، بينما كان يتعسر على المسلمين أن يغزوا المسالح الفارسية من غير مساعدة قبائل بني بكر ، فضلاً عن أنه لا يستطاع إرسال الغنائم الى المدينة ، لأنها تمر بديارهم ثم إن هذه المعارك الرتيبة من المغيثة الى النجف الى بانقيا وباروسما والحيرة ، لا تدل على أنها أحداث وقعت فعلاً ، ولا سيما أن موقف الفرس يومئذٍ لا يساعدهم على مدافعة تلك المسالح ، والحصون في المسالح تكون عادةً قوية ومبنية بالحجر والآجر وبالرغم من أن أبا يوسف جعل قوة خالد مؤلفة من خمسمئة وألفين من الخيالة والجمالين ، لم يكن لديها من الآلات الصالحة لمحاصرة الحصون والقصور وإذا كان الفرس قد احتلوها فعلاً ، وجب أن يكونوا قد ادخروا فيها أرزاقاً وذخائر كافية ثم إن أبا يوسف هو المؤرخ الوحيد الذي أشار الى حصن النجف ، ووصفه بأنه أكبر مسلحة للأعاجم ،

ومع ذلك فتحه بسهولة ، بينما لم تظهر مدينة الحيرة الواقعة بقربه نشاطاً يذكر في الدفاع وكذلك جعل نصف قوة خالد مؤلفة من الأتباع والعيال ، وهذا يخالف منطق الحركات العسكرية ؛ لأن القوة الغازية ينبغي أن تكون خفيفة الحركة ، سيارة ، تقوم بالإغارات المفاجئة ، فان خمس مئة وألفين من الأتباع والعيال تعوق حركاتها فضلاً عن حاجتها الى الماء والأرزاق والمرعى وغير ذلك [(١)] » .

وقعة المقر : أين يقع المَقَر ؟ هل هو اسم موضع ، أو هو صفة لذلك الموضع ؟ ذكره ياقوت في معجمه ، وقال عنه : هو في اللغة انقاع السمك في الماء والملح ، وأضاف أنه موضع قرب فرات بادَقْلى من ناحية البر من جهة الحيرة ، كانت به وقعة للمسلمين ، وأميرهم خالد بن الوليد في أيام أبي بكر ويبدو من مجرى الحركات أنه واقع بين أمغيشيا ومصب نهر بادَقْلى في الفرات ، وهذا النهر فرع من فروع الفرات يستقي الماء منه قبالة الجرعاء (الجمارة) ، ويجري في الاتجاه الجنوبي الشرقي ، ويسقي مزارع قصبة أمغيشيا

لقد تغلب خالد بقوته الصغيرة ، الخفيفة الحركة ، على الفرس في أربعة مواقع ، وهزم الجند الذي استطاع الفرس تجهيزه ، وكان نصيب أكثر قادة أولئك الأجناد القتل أما القائد العام ، ففضل الاشتراك في المؤامرات في أحداث البلاط الساساني على تولي مهمة الدفاع عن أرض السواد ويظهر من مجرى الوقائع أنه بانهزام الفرس في أُلَّيس وموت جابان ، خلا الميدان لخالد ، ولم يبق فيه الا حامية الحيرة ، وكان مرزبانها أي حاكمها ، كما ذكر سيف بن عمر ، أزاذبه وكان الازاذبه يحكمون إمارة الحيرة منذ أن قضى الفرس على المناذرة أمراء الحيرة ويظهر مما أورده سيف بن عمر أن حكام الحيرة كانوا لا يعدون قادة الفرس الآخرين إلا بأمر الملك ، ومعنى ذلك أن أزاذبه بقي في الحيرة لا يهم مما وقع من الأحداث في جنوبي الفرات ، ولا بد أنه كان على علم تام بها ولكنه لما اطلع على أن المسلمين تغلبوا على الجند الفارسي بقيادة جابان في أُلَّيس ، وهدمهم قصبة أمغيشيا ، وثق بأن الدائرة ستدور عليه ، أو أنه غير متروك كما قال الطبري ، فأخذ في أمره وتهيأ لحرب خالد

(١) ميوسل : الفرات الأوسط (ص ٢٨٩) .

ويبدو أن عيون خالد أخبرته بتحفز أزاذبه ليسـّد بوجهه طريق الحيرة ويحول دون فتحها ، ولم يبق أمام خالد الاّ الحيرة ، واذا فتحها يكون قد نال هدفه الثاني فى حركاته

إن المسافة بين أمغيشيا والحيرة مرحلة واحدة تقطع في يوم ، ويقع مجمع الأنهار في منتصف المرحلة ، وقد ثبتنا موضع مجمع الأنهار بين أبي صخير والجمارة ، وفيه تجتمع ثلاثة أنهـار : نهر العتيق وهو النهر الذي كانت ذنائبه تسقي القادسية ، ونهر برسف ، ونهر السيلحين

وقد اعتمد (ميوسل) على ماذكره الطبري ، وقال: إن مجمع الأنهار الموضع الذي يجتمع فيه قناة العتيق ، وقناة الحيرة ، وقناة برسف ، بينما القناة التي تسقي الحيرة تأخذ ماءها من الفرات شمال الحيرة كما بينا سابقاً ، والقناة الثالثة هي نهر السيلحين ، لا نهر الحيرة

رأى خالد أن يسرع فى حركته ليقطع الأنهار فى مجمعها ، ويفاجيء أزاذبه ، وبذلك يصبح طريق الحيرة مفتوحاً بوجهه ؛ لهذا أركب الراجلين أي المشاة والغنائم والأثقال في السفن ، وسار على رأس قوته الراكبة بالاتجاه الشمالي على ضفة الفرات اليمنى أما أزاذبه ، فوجه ابنه نحو الجنوب مع ما استطاع أن يحشده من قوة ، على أن يخرج هو مع باقي الجيش في أثره وقد سبـّق ابن أزاذبه طليعته الخيالة أمامه وبينما كان خالد يسير مسرعاً الى الشمال اذا به يفاجأ بأن السفن جنحت ، فارتاع لذلك ، لأنه كان بحاجة الى الراجلين فى مقاتلة العدو والى الغنـائم والأثقال ولما تبـيّن من الملاحين سبب ذلك ، علم أن ابن أزاذبه حور ماء النهر الذي كانت السفن تمخر فيه الى قنوات أخرى ، فانقطع الماء عن النهر ، وما إن علم ذلك حتى عجّـل حركته ليسد القنوات التي حـُوّرت المياه اليها ، وفى تقدمـه مسرعاً شاهد خيالة العدو في فم أحد القنوات ، ففاجأهم وهم آمنون لغارتهم في تلك الساعة كما ذكر الطبري ، فقضى عليهم والموضع الذي فاجأهم فيه هو المـَقَرّ وأشار الطبري الى أن خيل العدو كانت في فم العتيق ، بينما يقع فم العتيق في مجمع الأنهار كما بينا ، ولهذا ينبغي أن يكون الموضع فم قناة أخرى تأخذ الماء من النهر جنوبي مجمع الأنهار وبعد أن قضى خالد على خيالة العدو ، سار من فوره ، فاصطدم بجند ابن أزاذبه على فم فرات بادقلى ، ونشب القتال بين الفريقين ، فَقُتل ابن أزاذبه ، وقُضي على أكثر جنده وعلى أثره كسر خالد السد ، فأعاد الماء الى النهر ، فسارت السفن أما أزاذبه ، فكان

قد خرج من الحيرة ، وعسكر خارجها ، ليلتحق بابنه ولما وافته الأخبار أن ابنه قُتِل ، قطع الفرات ، وفرّ هارباً ذكر الطبري أن الذي حداه على الهرب استخباره موت الملك أردشير وأما خالد ، فجمع جنده ، وسار قاصداً الحيرة ، ونزل بالخورنق منتظراً ورود رجاله ولما انضموا اليه ، تقدم الى الحيرة ، وعسكر بالموضع الذي كان جند أزاذبه قد أقام فيه قبل الهرب ، وهكذا أصبح على أبواب مدينة الحيرة

ومن المفيد أن نشير الى انتقادات (ميوسل) لـ(كيتاني) على ما أبداه من آراء في حركة خالد جنوبيّ الفرات وقد ذكرنا من قبل أن (كيتاني) تمسك ببعض الروايات المدنيـة ، وزعم أن كل ما روي عن معارك خالد مع الفرس من كاظمة والولجة وأُليس إن هو إلا قصص وضعها سـيف بن عمر وغيره تعصباً لبني قومهم ، ليجعلوهم ذا نصيب أكبر في فتوحات العراق ؛ لهـذا جعل ابن إسحاق الراوي المفضل ، واعتمد على رواياته المقتضبة أما الرواة الآخرون ، كالمدائني والبلاذري وغيرهما ، فاذا اتفق أنهم ذكروا خبر مرور خالد بأرض البصرة ، فان (كيتاني) يعدهم قد تأثروا بروايات سيف بن عمر أو رواة آخرين من المدرسة العراقية

زعم (كيتاني) أن خالد بن الوليد تقدم من النباج الى الحيرة دون أن يمر بالبصرة ، وأنكر وقوع قتال في كاظمة والولجة أما حادثة أُلَّيس ، فيميل الى أنها وقعت ، ولكنه يثبتها في شمالي الحيرة وما دام ابن إسـحاق روى أن خالداً : « مضى يريد العراق حتى نزل بقريات من من السواد يقال لها بانقيا وباروسما وأُلّيس ، فصالحه أهلها ... ثم أقبل خالد بمن معه حتى نزل الحيرة ... » ، فينبغي للباحث أن يهمل الروايات الأخرى ولا يركن اليها وبهذا الاقتناع ثبت (كيتاني) حوادث سفر خالد الى العراق والغريب أنه اعتمد على رواية يزيد بن نبيشة العامري التي أوردها البلاذري [١] زعم هذا أنه قدم العراق مع خالد ، وأنهم انتهوا الى مسـلحة العُـذَيب ، ثم أتوا الحيرة وقد تحصنّ أهلها ... بينما لم يذكر راوٍ من الرواة مرور خالد بالعُـذَيب ما عدا أبا يوسف ، ولعل ذلك الراوي خلط سفر سـعد بن أبي وقاص بسفر خالد . ومن المعلوم أن سعداً نزل بالعذيب قبل معركة القادسية

(١) البلاذري (ص ٢٤٥) .

لقد قدم كيتاني فتح قريتي بانقيا وباروسما على فتح الحيرة ، وأكد أن خالداً دخل الحيرة من الشمال ، وثبت قرية ألّيس شمالي الحيرة ، وجعل اسم ألّيس محرّفاً من (ولوجسياس) أو (فولجيسيا) كما ذكرنا ذلك في شرحنا لجغرافيا العراق في أوائل الفتح العربي ؛ بينما أثبت الرواة الآخرون أن فتح بانقيا وباروسما جرى بعد فتح المسلمين للحيرة أما موضع ألّيس ، فواقع الى جنوبي الحيرة ، ومما يؤيد وقوع هذا الموضع جنوبي الحيرة تحوير الفرس لماء النهر الذي سارت فيه السفن الحاملة مشاة خالد وأثقاله حينما توجه من ألّيس يريد مفاجأة ابن أزاذبه ويدل ذلك على أن السفن كانت تسير معاكسة للمجرى ، ولو لم يكن كذلك لما أمكن قطع الماء عن النهر

وبهذه المناسبة نذكر أن حادث صد الماء من الجريان في النهر وقع مرةً ثانية في أخبار القتال الذي جرى سنة ٦٧ هـ بين مصعب بن الزبير والمختار بن أبي عبيد الثقفي لقد سار مصعب بن الزبير من البصرة على طريق البر والنهر الى المختار الذي سار من الكوفة الى مصعب ، ونزل في السيلحون ، وسد الفرات أدنى مجمع الأنهار ولما سد المجرى ، انسابت المياه الى قنوات مجمع الأنهار ، فجنحت سفن مصعب ، فاضطر الى السير ماشياً ، ولكن خيالته أسرعت وكسرت السد ، فجرت المياه في الفرات ، وسارت السفن مع الرجال الى الكوفة (١)

والذي يظهر مما كتبه (كيتاني) عن سفر خالد في العراق وما شرحه في الهوامش العديدة (٢)، أنه ظل تحت تأثير فكره الثابت الذي تسلط عليه ، وهو أن خالداً في سفره الى العراق لم يستهدف الفتح ، وأن أبا بكر لم يفكر في أمر العراق لو لم ينبهه المثنى بن حارثة على ذلك ، وأن كل ما ورد من وقائع عن قتال وصلح حدث في جنوبي العراق ما هو الا من نسج الخيال

ومن الأمور التي تدل على خطأ (كيتاني) في نقده لوقائع العراق أنه أنكر كل الإنكار وقوع قتال في مجمع الأنهار ، وعدّ المثل الذي أورده الطبري مقدمة لوقعة المذار كلاماً لا يدل على حادثة بذاتها ، إنما يشير الى حوادث جرت متأخرة ، وقد تكون قد وقعت في بلاد أخرى أما ماذكره الطبري ، فهو قوله : « قال الناس يومئذٍ صفر الأصفار ، فيه يقتل كل جبار ، في مجمع

(١) الطبري : (٥٦٢/٤)

(٢) كيتاني : حوليات الاسلام ، الفقرات (١٥٥ و١٥٦ و ١٥٧) وما يتبعها من حوادث سنة ١٣ هـ .

الأنهار (١)

يستمين(كيتاني) بالمستشرق الألماني (ولهاوزن) الذي ذكر أن مجمع الأنهار اسم لم يرد ذكره الاّ في تلك الحادثة من حوادث السواد ، ويضيف أن تعبير مجمع الأنهار تعبير غامض ، وفي وسع الباحث أن يعبر به عن مواضع كثيرة ، ولم يعده ولهاوزن اسماً خاصاً يدل على موضع معين . ولا ريب في أن هذا الاستنساج ناشيء من جهل الاثنين بجغرافيا العراق ؛ لأن سالك ضفة الفرات اليمنى ، وهو قادم من خفّان ، لابدّ له أن يمر بالموضع الذي تجتمع به أنهار عديدة

لم ينتبه (كيتاني) ولا (ولهاوزن) الى إيضاح الطبري لوضع مجمع الأنهار في حوادث سنة ١٣ هـ وحوادث سنة ٦٧ هـ . وما تزال عدة أنهار تأخذ الماء من فرع الفرات قبالة أبي صخير والجمارة ، وتمتد الى الغرب والى الجنوب الغربي وما دامت طبغرافيا الأرض تساعد على شق هذه الأنهر لسقي المزارع التي فى الضفة اليمنى ، فقد اجتمعت صدور الأنهر فى ذلك المحل قديماً فى العهد الفارسي وفي العهد العربي والعباسي والعثماني وفى عهدنا هذا وللوصول الى الحقيقة ، لامناص من الركون الى الروايات التي يرويها الأخباريون الذين كانوا يعرفون طبغرافيا البلاد حق المعرفة ، وكان سيف بن عمر من جملتهم

ومما يلفت النظر أن (كيتاني) يحاول أن يقلل من شأن خالد فى فتوح العراق ، ويستند ـ على عادته ـ الى الروايات التي أشارت الى أن المثنى قام بالعمل الفلاني : كمحاصرته لحصن المرأة ، وقتاله لجابان صاحب ألّيس ، وطرده إياه ، وقتله جُلّ أصحابه ، ولقائه لخيول أزاذبه بمجمع الأنهار وإنزال الهزيمة بهم ، ومحاصرته لحصن ابن بقيلة فى الحيرة ، ويستنتج من ذلك أن خالداً لم يشترك فى حادثة ما من تلك الحوادث ، ويشير الى أن ابن الوليد بقي متفرجاً على ما يجري أما الذي كان يصول ويجول فى ميدان العراق ، فهو المثنى ورجاله بينما الروايات التي اعتمد عليها ذكرت بصريح العبارة أن خالداً هو الذي وجه المثنى الى المواضع التي جرى القتال فيها . ولقد كان خالد القائد العام فى حرب العراق ، وكان تحت إمرته قوات من القبائل بقيادة رؤسائها ، وكان من الطبيعي أن يأمر خالد ـ وهو القائد العام ـ قادته بالقيام بالحركات على نحو ما عليه الأحوال ويتطلبه الموقف العسكري وكان المثنى كما نعلم أمير القوات من بني شيبان ، وهو أخبر بحالة البلاد التي يسعى خالد فى فتحها ،

(١) الطبري (٣/٧، ٥)

وكذلك من المعقول أن يوجه خالد المثنى الى الجهات التي هو أخبر بخباياها ، لأنه سبق لقبيلته أن حاربت الفرس فى تلك الجهات ، ولا ضير من أن يتكرر اسم المثنى

ومما ذكره (ميوسل) منتقداً آراء (كيتاني) قوله : يرى (كيتاني) أن خالداً سار الى الحيرة من النباج على طريق (فيد ـ الثعلبية) مستنداً الى رواية الواقدي التي أوردها البلاذري ، وهي : « قال الواقدي : والذي عليه أصحابنا من أهل الحجاز أن خالداً قدم المدينة من اليمامة ، ثم خرج منها الى العراق على فيد والثعلبية » ويعد (كيتاني) الواقديَّ من أوثق الرواة ، ولكن الواقدي لم يذكر فى روايته تلك اسم النباج ولو كان الراوي الذي اقتبس الواقدي منه الخبر مطلعاً على جغرافيا البلاد ، لما ذكر أن خالداً سار من النباج الى العراق على طريق فيد ؛ لأن النباج يقع جنوب شرقي فيد على بعد زهاء مئتي كيلومتر ، وهو أقرب الى الأُبلة منه الى فيد

وكذلك ذكر (كيتاني) أن العرب ذهبوا الى الحيرة رأساً ولم يلاقوا العدو في طريقهم ، ويعتمد فى ذلك على كلٍ من رواية الواقدي ورواية ابن اسحاق ، ويزعم أن المقاومة الضعيفة التي أبداها أهل الحيرة تدل على أن خالداً باغت المدينة ، وأن العرب غزوا المدينة ونهبوها حينما وصلوا اليها

ويرى (كيتاني) أن فى هذه الحادثة حجة نفسية وعسكرية تعارض الرأي القائل إن خالداً فى اغارته على البلاد اقترب من الحيرة من البصرة فشمال غربيها

ويقول (ميوسل) فى الرد على (كيتاني) : إنه أشار فيما سبق الى أنه لا توجد روايةٌ ما تذكر أن أبا بكر أمر خالداً أن يتوجه الى الحيرة رأساً ويظهر من رواية ابن اسحاق التي اعتمد عليها (كيتاني) أن خالداً فتح أماكن في أطراف البصرة قبل وصوله الى المدينة نفسها ولا يعتمد (كيتاني) على رواية المدائني التي ذكرت « أن أبا بكر وجه خالد بن الوليد الى أرض الكوفة ، وفيها المثنى بن حارثة الشيباني ، فسار في المحرم سنة اثنتي عشرة ، فجعل طريقه البصرة » ، ويستنكر مسير خالد الى البصرة ؛ لأن ذلك ـ على حسب رأيه ـ لا ينطبق على الرواية ، ويقول : إن الطريق الذي يُدعى عادةً (طريق البصرة) يتشعب شعبتين في م تتوجه إحدى شعبتيه الى البصرة ، وتتوجه الشعبة الأخرى الى الكوفة ، ويستنتج هو ذهاب خالد بن الوليد سار على طريق الكوفة ، أي الحيرة ويقول (ميوسل) ا مصطنع ومعارضٌ لنصّ الرواية ؛ لأن المدائني لم يذكر أن خالداً سار

بطريق البصرة ، بل ذكر أن خالداً جعل طريقه البصرة أما رواية ابن نبيشة التي أوردها البلاذري ، واعتمد عليها (كيتاني) وزعم أن خالداً انتهى الى مسلحة العذيب قبل أن يأتي الحيرة ، فلا تدل على أنه أتى من فيد والثعلبية الى العُذَيب ؛ لأن ابن نبيشة لم يوضح في روايته من أين أتوا العذيب ، وأي طريق سلكوا والرواية تبدأ بذكر العُذَيْب ، وهو موضع يقع الى جنوب الحيرة على بعد زهاء خمسة وثلاثين كيلو متراً (لقد ثبتناه في موضع الرحبة الحالي) ، على ملتقى طريقين : أحدهما يأتي من فيد ، والآخر يأتي من البصرة على خَفّان ولم يشر ابن نبيشة الى فتح حصن العذيب ، مما يدلّ على أنه كان بلا حامية انتهى انتقاد (ميوسل) لآراء (كيتاني)

ونود الآن أن نثبت الأشهر التي جرت فيها حوادث العراق من كاظمة الى الموضع الذي نزل فيه خالد بين الخورنق والنجفة ، وهو على أبواب الحيرة

روى المدائني أن أبا بكر وجه خالداً الى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة ، ولا يختلف هذا كثيراً عما توصلنا اليه في بحثنا عن تأريخ وصول خالد الى أطراف البصرة ، وبينا أنه وصل في أوائل صفر من السنة المذكورة ولم يذكر الطبري تأريخ وقعة كاظمة ، ولكنه ذكر أن وقعة الثني التي جرت بعد كاظمة بقليل تمت في صفر ، وكذلك ثبت أن قتال الولجة أيضاً جرى في الشهر نفسه كما أنه نوه بما يستدل منه أن وقعة أُلَّيْس وحادثة أمغيشيا جرتا أيضاً في ذلك الشهر وجاء في الطبري أن كتاب الصلح الذي أعطاه خالد أشرافَ الحيرة ، كتب في شهر ربيع الأول ، ولكنه ذكر أن كتاب خالد الى صلوبا بن نسطونا صاحب بانقيا كُتب في صفر ، بيما تشير أكثر الروايات الى أن فتح بانقيا وباروسما تم بعد فتح الحيرة وما دامت بانقيا تقع في شمال الحيرة كما بينا ، فاننا نستبعد أن خالد بن الوليد ، بعد انتصاره على ابن أزاذبه في مجمع الأنهار ، يلتف حول الحيرة ولا يمر بها ، ويتوجه الى الشمال ويفتح بانقيا ، ثم يعود الى الجنوب ليفتح الحيرة . واذا كان صلح الحيرة وقع في شهر ربيع الأول كما ذكره الطبري ، لزم أن فتح بانقيا تمّ بعد ذلك التأريخ والذي يظهر من الروايات التي أثبتها الطبري أن وقائع كاظمة والثني والولجة وأُلَّيْس ومجمع الأنهار جرت في صفر

والآن ينبغي لنا أن نعلم أ من الصحيح حشر وقائع الفتح جميعها من كاظمة الى أطراف الحيرة

في شهر واحد ؟ والروايات تشير الى أن خالداً مكث في الثني ، وأنه لم يتوجه الى موضع آخر الا بعد التريث والتثبت من أخبار العدو بواسطة جواسيسه وعيونه ولا نعلم اليوم الذي كُتب فيه كتاب خالد الى أشراف الحيرة : أ كتب فى أوائل شهر ربيع الأول أم فى وسطه أم في آخره ؟ ومما يلفت النظر أن الروايات لم تذكر تأريخاً للوقائع التي وقعت بعد فتح الحيرة ، الا إشارة عابرة الى أن خالد بن الوليد أفطر رمضانَ في الفراض ووقعة الفراض آخر غزواته في العراق خرج منه حاجاً ومتخفياً في آخر ذي القعدة من سنة اثنتي عشرة للهجرة ، وتأهب للسفر الى الشام بعد عودته من الحج وذكر الطبري أن وقعة الفراض وقعت في منتصف ذي القعدة ، وأن خالداً خرج منها حاجاً لخمس بقين من ذي القعدة [1] ، وكان وافاه كتاب أبي بكر بالحيرة بعد عودته من الحج يأمره بالمسير الى الشام لنجدة جموع المسلمين فيها

ليس بعيداً حشر الوقائع التي سبقت فتح الحيرة في شهر ونصف شهر ؛ لأن المسافة بين كاظمة والحيرة أكثر من ست مئة كيلومتر ، يجوز أن تقطع دون حرب بخمسة عشر يوماً ، يضاف الى ذلك المكوث هنا وهناك والوقت الذي ينقضي بالقتال وتدبير الأمور واستيفاء الخراج وغير ذلك ، ولا سيما اذا آثر خالد العجلة في حركته ، واعتزم أن يدخل الحيرة قبل عياض بن غُنم ؛ لأن أمر الخليفة ينصّ على أن الذي يسبق الى الحيرة يكون الأمير على صاحبه ، وخالد ــ ذلك المقدام الذي اعتاد أن يحارب مستقلاً معتزاً برأيه ــ ربما لا يرتاح أن يغدو المأمور بعد أن كان الأمير إلا اذا اضطر الى ذلك وما دام المجال واسعاً ليظل هو الأمير ، فليتقدم بسرعة الى الحيرة فضلاً عن أن السرعة في حركات العراق ضرورية ، لئلا يستعدّ الفرس لحشد قوة كبيرة وارسالها نحو المسلمين ليمنعوهم من فتح الحيرة ، وهي كما نعلم أهم قصبة في غرب الفرات ، وعاصمة الإمارة التي أصبح الفرس يديرون شؤونها مباشرة بعد ما أنهوا حكم المناذرة فيها ، ولطالما اتخذوها دولة حاجزة بين امبراطوريتهم والامبراطورية البيزنطية ، واستطاعوا بها أن يخففوا من أضرار عرب البادية ، وكانت الحيرة هدف خالد الثاني في حركاته في العراق

والذي دعانا الى إطالة البحث في تأريخ الوقائع التي جرت في جنوبي العراق ، هو ذهاب

(١) الطبري : (٢/٥٨٣) .

(ميوسل) الى أن الحركات وقعت فى الخريف ، أي أشهر أيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني لسنة ٦٣٣ م

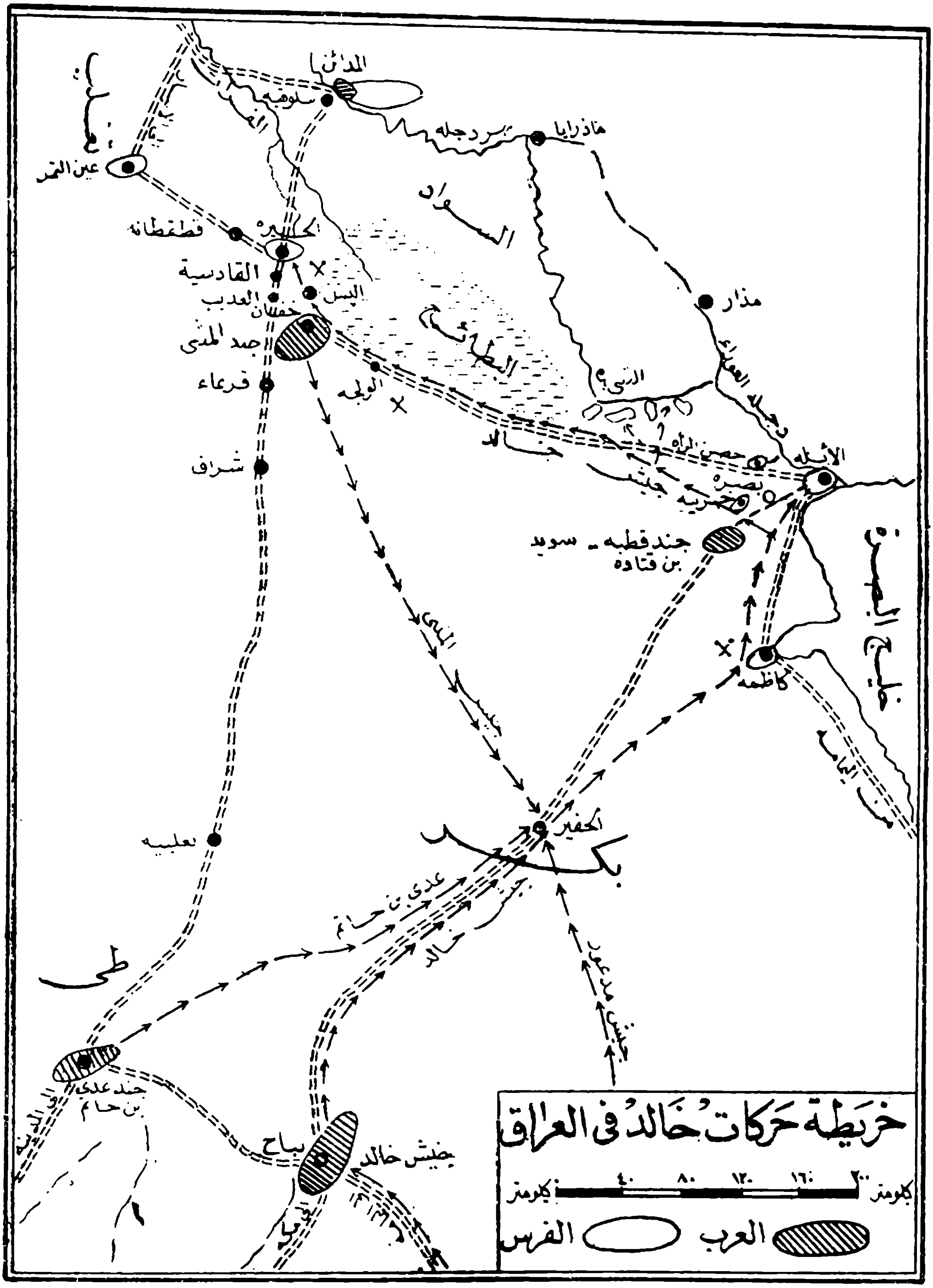
يميل (ميوسل) الى أن صفر المذكور في الروايات ، هو الموسم الذي يطلق عليه العرب اسم « صفر الأصفار » أو « الصفاريات » كما يسميه البدو الآن ، أي الخريف أو أشـهر الخريف ، ويستند فى استنتاجه هذا الى ما قدمه الطبري لوقعة المذار حيث قال « وفي صفر سنة اثنتى عشرة يومئذٍ ، قال الناس : « صفر الأصفار ، فيه يقتل كل جبار ، على مجمع الأنهار [1] » .

ذكر (ميوسل) في نقده لآراء (كيتاني) الذي أنكر وقوع قتال فى مجمع الأنهار أن الجملة التي أثبتها الطبري هي دليل على أن قتال مجمع الأنهار حدث لا ريب فيـه ؛ لأنه ثبت ذكريات القتال في الأذهان ، فضلاً عن أنه سجل التاريخ الصحيح للوقعة المذكورة . ويضيف (ميوسل) أن المسلمين الأولين لم يهتموا بتأريخ الوقائع ، ولم يحفظوها ، واذا اتفق أن الذين شهدوا القتال ضبطوا التأريخ ضبطاً صحيحاً ، فان الروايات لا تتمكن من ضبطها من غير تأييدها بنشيد أو شعر أو مثل أو حادثة معاصرة ؛ ولو كانت تواريخ المعاهـدات وكتب الصلح مثبتة ، لتيسر لنا تثبيت تأريخ الوقائع التي نحن بصددها ثم يقول (ميوسل) إن الجملة المذكورة دليل على أن وقعة مجمع الأنهار وقعت في الخريف ؛ لأن صفر الأصفار كما يعرفه البدو فى زماننا ، يعني الخريف ، أي أشهر أيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وقد ارتأى (ولهاوزن) أيضاً هذا الرأي [2]

وذكر (ميوسل) في مكان آخر أن تحوير الفرس لمياه النهر الذي مخرت فيـه السفن بين أمغيشيا ومجمع الأنهار ، دليل على أن خالداً فتح أُلّيس في صفر الأصفار ، أي في تشرين الأول ؛ لأنه زعم أن الفرس لا يستطيعون سد الماء وتحويره الى نهر آخر الا في الموسـم الذي تنقطع فيه الأمطار في العراق ، وأن منسوب المياه في نهر الفرات يأخذ بالارتفـاع من تشرين الثاني الى آيار

لقد ظن (ميوسل) أن صدّ المياه من الجريان في الأنهر والقنوات وتحويرها الى نهرٍ أو قناة أخرى ، أمر متعذر في الربيع حيث يبلغ منسوب المياه أقصاه ولـكننا نعلم أن إقامة سدّ لصد

(١) الطبري : (٢/٥٠٧) (٢) ميوسل : الفرات الأوسط (ص ٢٩١)



خريطة حركات خالد فى العراق
المدائن
سلوقيه
ماذرايا
نهر دجله
عين التمر
قطقطانه
الحيره
القادسية
العذيب
خفان
البس
جند المثنى
فرعاء
الولجه
شراف
السواد
البطائح
مذار
خالد
الأبله
بصره
جيش
جند قطبه ـ سويد بن قتاده
كاظمه
خليج العجم
اليمامه
المثنى
الحفير
بكر
ثعلبيه
عدى بن حاتم
طى
جند عدى بن حاتم
جيش خالد
كيلومتر ٤٠ ٨٠ ١٢٠ ١٦٠ ٢٠٠ كيلومتر
العرب
الفرس

المياه وتحويرها الى جهة أخرى ، أمر متيسر ، ولا سيما اذا كانت السفن التي أركب خالد فيها رجاله وأثقاله كانت تمخر في إحدى القنوات الموازية للفرات ولقد كان (ميوسل) معذوراً في ملاحظته المذكورة ؛ لأنه مر بالفرات الأوسط مراً خاطفاً ، ولم يقض فيه مدة طويلة واذا أثبت من جهة أخرى ما ارتآه (ميوسل) من أن وقعة أُلّيس جرت في تشرين الأول سنة ٦٣٣ م ، لا في أوائل أيّار من السنة نفسها الذي يصادف منتصف صفر من سنة اثنتى عشرة للهجرة ، فيكون فتح أُلّيس قد تم في شهر رجب من السنة نفسها وقد ذكرت الروايات أن خالداً أفطر في الفراض كما أشرنا من قبل ، ومكث فيها بعد أن أنهى غزواته في العراق وفتحه لدُومة الجَنْدَل وقتاله لتَغلِبَ في شرقي بادية الشام ومروره بالثني والزميل (وهما كما سننبت مواضعهما في جنوب شرقي الرصافة الواقعة الى جنوبي نهر الفرات في انعطافه في بلاد سورية من الغرب الى الشرق) ، وغير ممكن أن يجري خالد كل ذلك في شهر أو شهرين ، فضلاً عن أن الروايات ذكرت أن خالداً عبر الفرات في الفراض في منتصف ذي القعدة ، وأقام فيه عشرة أيام ، وقد أفطر فيه قبل ذلك ويستنتج من كل ذلك أنه قضى في الفراض وحده شهرين ، أو أكثر وهناك روايات تشير الى أن خالداً قضى سنة في العراق ، وهي السنة التي شكا منها ، وقال فيها : « إنها لسنة كأنها سنة نساء » والواقع أن خالد بن الوليد قضى سنة في العراق وصل الى أطراف البصرة في أوائل صفر من سنه اثنتى عشرة للهجرة ، أي في منتصف نيسان سنة ٦٣٣ م ، وترك العراق متوجهاً الى الشام في أواخر المحرم من سنة ثلاث عشرة للهجرة ، ويصادف ذلك أواخر آذار من سنه ٦٣٤ م

(للبحث بقية) طه الهاشمي

تنبيه : ورد في القسم الأول من مقالنا هذا المنشور في الجزء السابق بعض الخطأ ، ومن ذلك أننا جعلنا المدائن عاصمة الفرس الشتوية تارة وعاصمتهم الصيفية أخرى ، والصحيح أن المدائن كانت العاصمة الشتوية وكذلك جعلنا قلعة صالح على ضفة دجلة اليمنى والصواب أنها على الضفة اليسرى

فهرست الجزء الثاني من المجلد الثالث

المقالات

الكتب

أنباء وآراء

(ختام المجلد الثالث)

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الرابع

الجزء الأول

(١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م)

مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد

خالد بن الوليد في العراق [1]

جولة في سهول الحيرة : قمنا أنا ومعالي الدكتور ناجي الأصيل مدير الآثار القديمة العام وموظفون في المديرية ، في شتاء سنة ١٩٥٣ م ، بزيارة خاطفة لسهل الحيرة وأطلال ضَيْزَن آباد والخَوَرْنَق والعُذَيْب (الرّحبة) والقادسيّة فأيّدت لنا هذه الزيارة لسهل الحيرة ما ذكرناه سابقاً ، في بحثنا لجغرافية العراق ، عن العراق قبل الفتح العربيّ

والسهل ، كما بيّنّا ، واقع بين الفرات ومنخفَض بحر النجف وهو مرتفع يشرف على البادية من الغرب ، وعلى الفرات من الشرق ولم يبق فيه من آثار المدينة العربيّة القديمة إلّا أطلال ضيزن آباد الواقعة الى الجنوب الغربيّ من حدود المدينة وبقايا بناءٍ يُظَنُّ أنه دير وقد أجرى فيه باحث بريطاني ، قبل بضع سنين ، بعض الحفريات

أما قصور المدينة التي ورد ذكرها في كتب التأريخ ، فلم يبق منها إلّا تلولٌ واطئة انتشرت هنا وهناك ، هي كلُّ ما بقي من قصور الحيرة ، وما يزال أثر تخطيط هذه القصور ظاهراً ، وأكثر ما يبدو اذا نزلت الأمطار ، فتظهر أسس البناء ؛ لأن لونها بعد المطر يختلف عن لون التربة المحيطة بها

وقد شاهدنا جنوبيّ بقايا الدير تلّاً هو طلل قصر قديم ، وكان أثر سوره ظاهراً . وفي هذا السور ، كما يُرَى ، أبراج يبعد بعضها عن بعض زهاء عشرين متراً ، وفي وسط الضلع المتجه الى الجنوب برجان كبيران متقاربان ، يدلان على أنهما قد أقيما لحماية باب القصر .

والى جنوب غربي هذا التل وعلى بُعْد زهاء كيلومترين بقايا بناء شيّد على الحافّة الشرقيّة للسفح الحجري الذي يسيطر على بحر النجف من الشرق ، وما بقي من هذا البناء بقايا

---

(١) أنظر المجلد الثالث من هذه المجلة

إيوان ، على جانبيه غرفة والإيوان يشرف على بحر النجف والبادية ، وثَمَّةَ أثر يدل على درج للهبوط من البناء الى الأسفل وقد أطلق الأهلون على هذا البناء اسم (طميرزاد) ، وهو تحريف (ضيزن آباد) اسم قصر ورد ذكره في كتب التأريخ والجغرافية وآثار السور الذي شاهدناه ، تؤيد ما كتبناه عن الحيرة[1] من أن قصور الحيرة كانت تُحافَظُ بسورين : سور داخلي ، وسور خارجي فيه أبراج للدفاع وللمراقبة

فتح الحيرة : ذكرنا قبلاً أن خالد بن الوليد بعد أصطدام جنده بجند أبن أزاذبه في فم فرات بادقلي ، وفرارِ أزاذبه ، جَمَعَ قوّته ، وسار قاصداً الحيرة فنزل أولاً في الخورنق ، ثم عسكر في المحل الذي كان جند أزاذبه فيه قبل هربه وهذا المحل يقع بين الخورنق والحيرة ، والمسافة بينهما تبلغ زهاء ستة كيلو مترات والحيرة ، كما بيّنا قبلاً ، كانت الهدف الثاني في حركات خالد بن الوليد .

وليس من شك في أن أهل الحيرة كانوا على علم تامّ بحركات خالد في العراق ، ولا بدّ من أنهم تعقبوا حركاته ، وعلموا أن أزاذبه قتل ، وأن أباه حاكم الحيرة قد هرب ؛ ولا نشك أنهم بثوا العيون لمراقبة خالد

ولمّا أتاهم الخبر أن خالداً نزل (بين الغَريَّين والنجفة) جنوبي الحيرة وقريباً منها ، جمعوا الدوابّ ، وأدخلوها في قصورهم ، وتحصنوا بها وكانت مزارع الحيرة وبساتينها ، كما أشرنا سابقاً ، بين القصور هكذا تحصّن أهل الحيرة بالقصور ، ورابط الرجال في الأبراج وعلى السور : يراقبون تقدم خالد بن الوليد

وتدل الروايات على أن أهل الحيرة لم يبدوا مقاومة تذكر ، ولم يكن في وسعهم منازلة جيش خالد بعد أن خسر الفرس المعارك في كل المواقع ، ولم تكن لديهم قوة كافية يدافعون بها عن العيالات والذراري . وفي رواية أن رجال الحيرة كانوا ستة آلاف ، وهم الذين كُلِفوا دفع الجزية .

(١) أنظر (ص ٧٨) من الجزء الأول للمجلد الثالث من المجلة .

ولما رأى خالد أن الناس تحصّنوا في قصورهم ، طلب الى قادته محاصرة القصور ، وبث رجاله في المزارع والبساتين ويبدو أن أول قصر واجه المسلمين في تقدمهم تلقاء الحيرة ، هو القصر الأبيض . واذا كان خالد قد عسكر في المحل الذي عسكر فيه أبن أزاذبه ، فأن جنده في مسيرهم الى الشمال يواجهون القصر الأبيض ؛ لأن قائد الفرس كان قد عسكر بين الغريين والقصر الأبيض كما رواه الطبري ، وهذا القصر ملك إياس بن قبيصة الطائي وكان إياس عامل كسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر[1] وهو ، بالشكل الذي بينا ، محاط بسورين ، وللسور باب ، ولعله كان متجهاً نحو الجنوب ، كالباب الذي شاهدنا آثاره شمال شرقي ضيزن آباد .

وتدل روايات سيف بن عمر على أن رجال خالد حاصروا القصور ، القصر الأبيض وفيه إياس ، وقصر العدسيين وفيه عدي بن عدي ، وقصر أبن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح . وتشير الرواية الى أن ضرار بن الأزور حاصر القصر الأول ، وحاصر ضرار بن الخطاب قصر العدسيين ، وحاصر ضرار بن مقرن المزني قصر أبن بقيلة ، ودعا خالد أهل القصور الى الاستسلام

وتذكر الرواية أن قتالاً وقع بين رجال ضرار بن الأزور والمتحصنين بالقصر ؛ لأن هؤلاء فضلوا المنابذة على الاستسلام ، فرموا المسلمين بالخزازيف ، ورشقهم المسلمون بالنبل ويفهم من الرواية أن القادة الآخرين أيضاً جابهوا المقاومة نفسها ، فرموا أهل القصور ، وكان من الطبيعي أن لا يؤثر النبل في الأسوار وليس للمسلمين آلات الحصار

وجاء فيما كتبه الطبري أن المسلمين أكثروا من القتل ، مما جعل القسيسين والرهبان من أهل الأديرة يتذمرون من أهل القصور ، ويقولون لهم : « ما يقتلنا غيركم » . واضطر أهل الحيرة أخيراً الى الاستسلام ، لأن المسلمين هددوهم بقطع نخيلهم المنبثة بين القصور ؛ وذكر الطبري أن المسلمين بثوا الغارات فيمن يليهم ، الى أن افتتحوا الدور والديرات .

---

(١) البلاذري (ص ٢٤٤) .

وفي رواية ذكرها البلاذري نقلاً عن يزيد بن نبيشة العامري أن أهل الحيرة تحصنوا في القصور ، فأجال المسلمون الخيل في عرصات الحيرة ، وقال العامري : « ثم أتينا الحيرة وقد تحصن أهلها في القصر الأبيض وقصر أبن بقيلة وقصر العدسيين ، فأجلنا الخيل في عرصاتهم ، ثم صالحونا[1] »

ولا يبعد أن المسلمين وسطوا أهل الأديرة ، مما جعل القسيسين والرهبان ينادون أهل القصور بالأستسلام .

يتبين مما ذكرناه أن مدينة الحيرة أستسلمت من غير مقاومة تذكر ، وجرى الصلح بين المسلمين وأهل الحيرة بالشروط التي ورد ذكرها في كتب التأريخ وكان ممثل أهل الحيرة أبن بقيلة عمرو بن عبد المسيح

وذكر المستشرق الإيطالي « كيتاني » أن خالداً باغت مدينة الحيرة قادماً من الشمال الشرقي . وقد أنتقدنا من قبل رأيه هذا[2] . والحيرة بقصورها وأبراجها وعيون رجالها ، لايعقل أنها تباغت من قبل المسلمين من أية جهة قدموا ولم يكن المسلمون من القلة بحيث يستطيعون أن يخفوا حركاتهم ويباغتوا المدينة وللحيرة ، كما ذكرنا في البحث الجغرافي ، مسالح في الجنوب ، وفي الغرب مسلحة العُذَيْب والقادسيّة والخَوَرْنق ، ولا يتصور أن يمر المسلمون بهذه الأماكن من غير أن يكون لأهل الحيرة علم بذلك

ومما شرطه خالد في كتاب الصلح « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين[3] » وبفتح الحيرة وصل خالد الى هدف الحركات الثاني . واذا صح تأريخ الكتاب الذي ثبت شروط الصلح بين المسلمين وأهل الحيرة ، يكون الفتح قد تم في شهر ربيع الأول سنة ١٢ للهجرة ، أي النصف الثاني لشهر أيار أو النصف الأول لشهر حزيران سنة ٦٣٣ م .

(١) البلاذري (ص ٢٤٥)

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي (١/٣/٦٨)

(٣) كتاب الخراج (ص ١٧٢)

فتح بانقيا وباروسما : وتقع قريتـا بانقيا وباروسما في شمال الحيرة ، الأولى على الضفـة اليمنى ، والثانية على الضفة اليسرى شمال الـكفل والأخبار عن فتح بانقيا متناقضـة ، ذكرت بعض الروايات أنها فتحت صلحاً ، وروايات أخرى أنها فتحت حرباً ، حتى أن البلاذري أورد بيتاً نسبه لضرار بن الأزور أشار فيه الى شدة الوقعة بقوله :

أَرِقْتُ ببانقيا ، ومن يَلْقَ مِثْلَما لَقِيتُ ببانقيـا من الجُرْح يأْرَقِ

والأبيات تثبت ذكريات حوادث وقعت في الفتوح ولـكن أصحيح أن ضراراً أشترك مع خالد في فتوح العراق ؟ والبلاذري نفسـه بعد أن ذكر ذلك البيت ، قـال : « ويقول الواقدي : إن المجمع عليه عند أصحابنا أن ضراراً قُتل باليمامة »

ونحن نستبعد وقوع قتال في بانقيا بعد الانتصارات الباهرة التي نالهـا خالد ، ولا بد أن أخبار تلك الانتصارات قد بلغت أهل بانقيا وما جاورهـا . لقد صالح أهلُ الحيرة المسـلمين ولم يقاتلوا ، ومع ذلك يجوز أن أحد القادة الفرس غرّر بأهل بانقيا وحملهم على مقاتلة المسلمين ، ولا سيما اذا كانت القوة التي بعثها خالد نحوهم لم تكن كبيرة ، وفي الروايات ما يشـير الى ذلك . وجاء فيها أن خالداً أقام في الحيرة ، وبعث جنوده الى الأطراف ، وكلفهم شنَّ الغارات ؛ لأنه لم يتوقع أن يلاقي جنوده مقاومة عنيفة وقـد أخبرته عيونه بذلك وكان من جملة شروطه في صلح الحيرة أن يكون أهلها عيوناً على أهل فارس .

وتختلف الروايات فيمن قاد الجند الذي بعثه خالد الى بانقيا ذكر البـلاذري : أن قائد الجند كان سعد بن بشير الأنصاري ، وأضاف بعـد ذلك قائلاً إن خالداً بعث جرير بن عبد الله البَجَلِيّ الى أهل بانقيا ، ولـكنـه يزيد على قوله أن قوماً ينكرون أن يكون جرير قـدم العراق إلا في خِلافة عُمَرَ بن الخطّاب

والحقيقة أن جرير بن عبد الله أوفد لنجدة العراق بعد وقعة الجسر

وروى البلاذري خبر قتال وقع بين بشير بن سعد الأنصاري وقائد خيل الفرس فرخنبداد ، وأن بشيراً أصابه جراح في هذا القتال أنتفض به وهو بـ « عين التمر » ومات منه ولعل القائد

الفارسي كان يراقب حركات جيش خالد ليخبر المدائن بأعمـاله ، وكانت بانقيـا قريبة من الطريق الذي يربط الحيرة بالمـدائن ويجوز أنه رك جسر الفـرات الذي يمر به الطريق وراءه ، وظـل يترصد حركات المسلمين بعد وصولهم الى الحيرة ولما رأى جند بشير قادمين ، اعتزم مقاتلتهم ؛ لأنه أستضعفهم ، فلقي حتفه في هذا القتال .

وبعد هذا الحادث خرج صاحب بانقيا ، وأعتذر للمسلمين ، وعرض عليهم الصلح . ويدعى هذا الصاحب صلوبا ، وهو نَبَطيّ من دهاقين البلاد ، يملك مقاطعات بانقيا وباروسما وقسـياثا أي قسّ الناطف الواقعة شمال بانقيا وعلى الضفة اليسرى ، والجسرُ كان يعقد بجانبها

وفي رواية لسيف بن عمر ذكرها الطبري أن الدهـاقين أصحاب المقاطعات كانوا يتربصون بخالد ، وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما أستقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد ، أتتـه عارضةً الصلح [1] .

وتشير الروايات الى ارســال خالد عماله الى الأطراف ، وتزعم أن رجاله انتشروا بين الفرات ودجلة ، ونزل بعضهم على السيب ، وهـــذا الموقع يقع على ضفة دجلة اليسرى شمال العزيزية ، وبذلك أستقام له ما بين الفلاليج الى أسفل السواد

والفلاليج هي الأماكن الواقعة على ضفتي الفرات شمـالي قسياثا ، وقد ثبتت الروايات أسماء العمال الذين قادوا الجند في هذه الاغارات .

تمهيد لفتح الأنبار : الأنبار ، كما بيّنـّا في البحث الجغرافي ، مدينة حصينة على الضفة اليسرى من الفرات شمال غربي الفلوجة ، على بعـد زهاء ثمانية كيلو مترات ، ما تزال أطلالهـا شاخصة وكانت مسورة ، وفيها حصن على مرتفع يسيطر على المدينـة وقد شـيدها الفرس ، وسموها فيروز سابور ، وكانت من القلاع الأمامية تسد طريق الشام بوجه القـادمين من الشمال أو الشمال الغربي ، وكان لها جسر يربط الضفتين وتقطعه القافلات القادمة من الشام في طريقها الى المدائن ، ويجوز أن يكون للجسر في الضفة اليمنى ضاحيـة أو حصن يسـتره ويكون بمثابة

(١) الطبري (٢/٥٧٠).

رأس جسر كما يعبرّ عنها في المصطلحات العسكرية وكان الفرس يدّخرون فيهما الأرزاق والتجهيزات ، يمونون بها جندهم ويجهزونهم بها . ولمّا كانت ثاني قلعة من قلاع الفرس معرضة لهجوم البيزنطيين الذين كانوا في حروب مستمرة مع الفرس ، كان لا بدّ من أدّخار الأرزاق فيها للاستفادة منها وقت الحصار والقلعة الأولى كانت الفـراض على الفرات في جوار الصالحية على طريق عانة — دير الزور وكانت الأنبار تمون الجيش الفارسي في أسفاره الى الشمال والشمال الغربي في فتوحاته في بلاد الشام وبلاد الأناضول وقد أشار جغرافيو العرب الى أنها كانت مدينة الأهراء ، وذكر ياقوت أنها سُمّيت أنباراً لأنه كان يجمع فيها أنابير الحنطة والشعير والقتّ والتبن ، وكانت الأكاسرة ترزق أصحابها منها

وكان خالد يعلم أن للفرس حاميةً في الأنبار ، كما أن لهم حاميات في عين التمر وفي الفُراض وفي رواية للشعبي أنه « كان بالعين (عين التمر) عسكر لفارس ، وبالأنبار آخر ، وبالفراض آخر [١] » .

وصل خالد الى الحيرة قبل عِياض بن غُنْم ، وبذلك أصبح قائد جيوش المسلمين في العراق بلا منازع ، وصار في الوقت نفسه الأمير على عياض عملاً بأوامر الخليفة التي تنص على أنه « أيهما سبق الى الحيرة فهو الأمير على صاحبه[٢] » ودرس خالد الموقف العسكري ، ورأى أنه ما تزال أمامه أعمال أخرى لإكمال الفتح ، فمدينة الأنبار ليست بعيدة عنه ، ثم هي مدينة خطيرة تهدد خلفه إذا أراد فتح عين التمر ، والعين هذه يجب أن تفتح لأن جماعة من بني تغلب وقوة من الفرس ترابط بها ، ولا يصح عسكرياً أن يذهب خالد الى نجدة عياض بن غنم الذي شجي بدومة الجندل قبل فتح عين التمر ، إذن ينبغي أن يبدأ بفتح الأنبار أولاً ، ثم يفتح عين التمر هكذا أعتزم خالد فتح الأنبار بعد أن أستقام له الأمر في الحيرة . وتبعد الأنبار من الحيرة زهاء ثمانين ومئة كيلو متر .

وإذا راعينا الأسلوب الذي بموجبه يجري (درس الموقف) من قبل القادة العسكريين في

(١) الطبري (٢/٥٧٣) (٢) الطبري (ص ٥٧٤) .

ونضجهم الخطط الحربية قبل تنفيذها ، جاز لنا أن نتصور كيف درس خالد الموقف الحربي وقدّره بعد فتح الحيرة

إن أمر الخليفـة صريح ، وهو يقضي بأن يصبح خالدٌ الأميرَ على عِيـاض بسبقه إيّاه في فتح الحيرة ، أي بتولية خالد فعلاً قيادة عياض بن غم الذي ما يزال يحـاول الوصول الى العراق من شماله ، وقد قامت بوجهه دومة الجندل وحصنها مارد . ولم يستطع فتحها وقصبة دومة الجندل ، أي الجوف ، واقعة على ملتقى طرق خطيرة في وسط القسم الشمالي لجزيرة العرب ولا يجوز أن تبقى القوة التي يقودها عياض بن غم عاطلة بعيدة عن ساحتي الحركات : الساحة الشرقيّة في العراق ، والساحة الغربية في بلاد الشـام حيث تحارب جيوش الإسـلام جيوش الروم وإن بقاء دومة الجندل بيد أعداء المسلمين الذين سـدوا الطريق بوجه عيـاض ، يشجع الفرس والروم على الاستناد اليها في حروبهم ضد المسلمين في الشرق والغرب ، والقصبة هـذه مركز مهم تجتمع حوله القبائل العربية المعادية للإسلام ، وهي على اتصال مستمر بالفرس بواسطة قبائل تغلب ، وبالروم بواسـطة قبائل كلب ومن حالفهم إذن لا بد من الحركة الى دومـة الجنـدل ، لنجـدة عياض بن غم والاسـتيلاء على ذلك المركز المهم ، وبدون ذلك لا يصبح المسلمون بالعراق وبالشام في مأمن من تشبثات الفرس والروم التي تهـدد المسـلمين من الخلف

وإذا كان الموقف الحربي يتطلب فتح دومة الجندل ، فينبغي التمهيد له ، وذلك بتصفية ما بقي من مراكز المقاومة الفارسـية في العراق : أي الأنبار على ضفة الفرات اليسرى ، وعين التمر الواقعة الى غربي الفرات والتي دلت المعلومات على أن جماعات من تغلب تجمعت فيها لمعاونة الفرس ، ولا يجوز التقدم نحو عين التمر وبالأنبار قوة فارسية تسيطر على معبر النهر وتساعد على العبور منه وفي إمكان هذه القوة الفارسـية تهديد خط مواصلات خالد حين مسـيره الى عين التمر ، فضلاً عن أن تكون الأنبار مركز مقاومة للتآمر مع القبائل العربيـة المعادية للمسلمين وعلى رأسها بنو تغلب

لقد جالت في ذهن خالد بن الوليد هذه الخواطر أو ما شابهها ، فقرر البدء بفتح الأنبار .

أشار الأخباريون بعد فتح بانقيا وباروسما وقسياثا الى حوادث وقعت في الأنبار ، ويتبين من الروايات أن الاضطرابات التي حدثت في بلاد فارس في زمن الفتح العربي أدت الى إهمال أمر الأنبار ، فلم يرابط فيها إلا حامية ضعيفة ، ولعلها كانت قوية قبيل الحركات في العراق . ولكن ضعف القوات الفارسية التي اضطرت الى الاشتباك مع قوات المسلمين في جنوب العراق ، جعل قيادة الفرس تسحب بعض جنود الحامية ، وتبعثهم الى الجنوب . وفي رواية لسيف بن عمر أوردها الطبري [1] : « أن أهل فارس كانوا بموت أردشير مختلفين في الملك ، مجتمعين على قتال خالد متساندين وكان بذلك سنه (؟) والمسلمون يمخرون ما دون دجلة ، وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر ، وليس لأحد منهم ذمة ، إلا الذين كاتبوه وأكتتبوا منه ، وسائر أهل السواد جلاء ومتحصنون ومحاربون »

ولا نعلم المدة التي قضاها خالد في الحيرة ، ويغلب على الظن أنه أفتتحها يوم وصول جنده إليها ولا بد أنه قضى فيها بعض الوقت ، لتنفيذ شروط الصلح ، ولإشرافه على أعمال العمال الذين بعثهم الى الأطراف وفي رواية أن خالداً قضى خمسين ليلة في الحيرة بعد فتحها ، ولا ريب في أن الأخبار التي وردت من عيونه عن الأنبار شجعته على فتحها .

الإغارة على سوق بغداد وسوق الخنافس : أشارت الروايات حين ذكرها فتح الأنبار الى إغارات على سوق بغداد ، ولم يفهم منها بجلاء هل وقعت قبل فتح الأنبار أو بعده . وبينما ذكر البلاذري خبرها ، لم يذكرها سيف بن عمر الذي اعتاد أن يسهب في أخبار الفتوح ، ولكنه أسهب في إيراد خبر الإغارات على سوق بغداد وسوق الخنافس في حوادث سنة ١٣ هـ في خلافة عمر ، وكأنها وقعت بعد انتصار المسلمين على الفرس في وقعة البُوَيب . فهل أخطأ سيف ابن عمر في التأريخ وذكر الواقعة المذكورة في حوادث سنة ١٣ هـ بدلاً من سنة ١٢ هـ ؟ أو أن الوقعة تكررت فوقعت أولاً حينما كان خالد يقود الحركات في العراق ، ووقعت مرةً أخرى في سنة ١٣ هـ قبل تولية سعد بن أبي وقاص القيادة في العراق ، أي بعد أن أنتقم المسلمون من

---

(١) الطبري (٢/٥٧٢)

الفرس عن هزيمة الجسر بانتصارهم عليهم في معركة البُوَيْب ؟ وقد أدمج سيف في روايته خبر الإغارة على سوق الخنافس في خبر الإغارة على سوق بغداد ، وزعم أن المسلمين قدموا الى الخنافس من الأنبار

وذكر الطبري خبر الإغارة على سوق بغداد نقلاً عن المدائني ، وسجلها في حوادث سنة ١٢ هـ ويبدو لنا أن سيف بن عمر أدخل الإغارة على سوق بغداد خطأً في حوادث سنة ١٣ هـ ، ولم يذكر البلاذري والمدائني خبراً عن سوق الخنافس ، مع أن سيف بن عمر ذكر الخبر مفصلاً ونذكر فيما يأتي الروايات الباحثة عن تلك الإغارات :

ذكر البلاذري : « أن خالداً أتى الفلاليج مُنْصَرَفَهُ من بانقيا وبها جمع للعجم ، فتفرقوا ، ولم يلق كيداً فرجع الى الحيرة ، فبلغه أن (جابان) في جمع عظيم بلستر ، فوجه اليه المثنى بن حارثة الشيباني وحنظلة بن ربيع بن رياح الأسيدي من بني تميم فلما انتهيا إليه هرب ، وسار خالد الى الأنبار ، فتحصن أهلها ، ثم أتاه من دله على سوق بغداد وهي السوق العتيقة عند قرن الصَّراة فبعث خالد المثنى بن حارثة ، فأغار عليه ، فملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء وما خف حمله من المتاع ، ثم باتوا بالسليحين ، وأتوا الأنبار وخالد بها ، فحصروا أهلها ، وحرقوا في نواحيها ... فلما رأى أهل الأنبار ما نزل بهم ، صالحوا خالداً على شيء رضي به ، فأقرهم . ويقال إن خالداً قدّم المثنى الى سوق بغداد ، ثم سار بعده فتولى الغارة ، ثم رجع الى الأنبار » وأضاف البلاذري قائلاً : « وليس ذلك بثبت (١) »

أما الطبري فذكر رواية المدائني ، وقد جاء فيها : « أن خالد بن الوليد أتى الأنبار ، فصالحوه على الجلاء ، ثم أعطوه شيئاً رضي به ، فأقرهم ، وأنه أغار على سوق بغداد من رستاق العال ، وأنه وجه المثنى فأغار على سوق ، فيها جمع لقضاعة وبكر ، فأصاب ما في السوق ، ثم سار الى عين التمر (٢) »

أما سيف بن عمر الذي أدخل وقعة سوق بغداد في حوادث سنة ١٣ هـ ، فذكر ما يلي :

(١) البلاذري (ص ٢٤٧)

(٢) الطبري (٢/٥٨٢)

« أتى رجلان المثنى : أحدهما أنباري ، والآخر حيري ، يدله كل منهما على سوق . فأما الأنباري فدله على الخنافس ، وأما الحيري فدله على بغداد [1] »

أما ياقوت فذكر « أن المثنى أتى الأنبار ، فتحصن أهلها فيها ، فأرسل الى مرزبانها ليسير اليه فيكلمه . فعبر المرزبان ، وقال له المثنى : إنه يريد الإغارة على سوق بغداد ، ويريد أن يبعث معه أدلاء ، ويعقد له الجسر ففعل المرزبان ، وقد كان قطع الجسر قبلاً ، لئلا تعبر العرب عليه » .

ويفهم من خبر البلاذري أن خالداً بعث المثنى الى سوق بغداد قبل محاصرته للأنبار . أما المدائني ، فروى أن خالد بن الوليد وجه المثنى الى السوق بعد صلح الأنبار وأما رواية سيف بن عمر ، فلا يعلم منها هل أن الرجلين دلاه على السوقين قبل فتح الأنبار أو بعده ؟

ويستنبط مما ذكره ياقوت أن الإغارة على سوق بغداد شنت بعد فتح الأنبار ، ويفهم منها أيضاً أن المثنى أتى الأنبار من ضفة الفرات اليمنى وفيما قاله ياقوت إشارة صريحة الى وجود جسر بالأنبار قطعه المرزبان لئلا يعبر العرب عليه

***

ويتبين من تفصيل ما تقدم أن خالد بن الوليد بعد فتحه لبانقيا وباروسما وقسياثا أعتزم فتح الأنبار ، ولكنه قبل أن يقدم على ذلك بث رجاله في الأطراف بين الفرات ودجلة ، وأغار رجاله على الطسوج الواقعة بين النهرين وكان عماله في هذه الغزوات : عبد الله بن وثيمة النصري ، نزل بالفلاليج على المنعة ، وقبض الجزية . وبشير بن الخصاصية على النهرين ، وسويد بن مقرن المزني على لستر ، وأط بن أبي أط من بني سعد بن زيد مناة على روذمستان

والطسوج التي ورد ذكرها في الروايات : طسوج كورة بهقباذ الأسفل ومنها لستر وروذمستان ، ومن طسوج كورة بهقباذ الأوسط بانقيا وباروسما . أما النهرين والفلاليج ، فمن طسوج بهقباذ الأعلى والكورات هذه تمتد شمالاً من طسوج عين التمر ، وهي من كورة

(١) الطبري (٢/١٥٥) .

بهقباذ الأعلى الى لستر وروذمستان الواقعتين شرقي الفرات ، والسليحين في الضفة الغربية منه ، ومن مواقعه الخورنق وضيزن آباد أما الفلاليج ، فليست هي الفلوجة الحاضرة التي تقع في كورة فيروز سابور ومن طسوجها الأنبار ، بل هي أسم علم لقرى عديدة واقعة على ضفتي الفرات من جنوبي الأنبار إلى شمالي النخيلة ، وهي الفلاليج العليا في الشمال ، والفلاليج السفلى في الجنوب وكان في العراق موقعان يدعيان بالخنافس : موقع بين الأنبار وسوق بغداد على الطريق ، وموقع آخر غربي الفرات على طريق البادية الذي يربط الحيرة بالفراض ويمر بعين التمر ؛ وكذلك نهران أو جدولان يدعيان بالسيلحين : الأول يأخذ الماء من الفرات من فم مجمع الأنهار قريباً من الجمّارة ، والثاني يأخذ الماء من جدول الصراة ويسقي المزارع بين الأنبار وسوق بغداد

وكان غرض خالد من تلك الإغارات قبض الخراج ، وضمان الأرزاق لجنوده ، ونشر فتوحاته إلى ضفاف دجلة ما أمكنه ذلك لهذا لايستبعد أنه بعث المثنى الى سوق بغداد قبيل فتحه للأنبار .

ذكر البلاذري أن السوق واقعة في قرن الصّراة قريباً من المكان الذي يصب نهر الصّراة ماءه في دجلة ، وهو من الأنهار التي تستقي الماء من الفرات وتجري الى الجنوب الشرقي نحو دجلة ، ولعل مكان السوق يقع جنوبي الشالجية . وذكر ياقوت أن أهل الحيرة قالوا للمثنى : إن بالقرب منّا قريةً تقوم فيها سوق عظيمة كل شهر مرة ، فيأتيها تجّار فارس والأهواز وسائر البلاد ، يقال لها إذ ذاك (بغداد) .

ونحن نميل الى أن الإغارة وقعت قبل فتح الأنبار ، والإغارة بحد ذاتها تتمة للإغارات التي شنها رجال خالد بين دجلة والفرات بعد فتح الحيرة وهي عمل متصل بتلك الأعمال ومن الروايات ما يحمل خالداً قد قام بنفسه بالإغارة ولكننا نستبعد ذلك ؛ لأنها لا تستدعي سوق قوة كبيرة بحيث يقودها خالد بنفسه ، والإغارة تتطلب سرعة الحركة والمباغتة ، ولا يتم ذلك إلا بقوة صغيرة سريعة الحركة ، لهذا نؤيد القول إن المثنى كان على رأس المغيرين وسواءٌ أكانت الإغارة على السوق قبيل الفتح أو بعده ، فان رجلاً ، ولعله من أهل الحيرة ، قد دلّ خالداً على سوق بغداد . فبعث خالد المثنى ، فأغار عليها .

لقد ذهب « موسل » الى ما ذهبنا اليه ، وعدّ رواية سيف بن عمر في هذا الصدد تخص حوادث وقعت سنة ١٢ هـ وكان « كيتاني » برغم أعتماده على الراويين المدنيين الواقدي وأبن اسحاق ، قد أنكر رواية المدائني عن إغارة المثنى على سوق بغداد ، وعدّ كل ما قيل عن حركات جرت في الضفة اليسرى للفرات غير صحيحة ، حتى انه أنكر فتح خالد للأنبار . وحجته في ذلك كما بينا قبلاً أن خالداً لم يأت العراق فاتحاً ، إنما أتى مغيراً ولكن « موسل » سفّه رأي « كيتاني » في عدة مناسبات ، وعد ما بينه سيف بن عمر توضيحاً لما ذكره البلاذري ورواه المدائني صحيحاً ؛ لأن الواقع التي ذكرها في الإغارة على سوق الخنافس وسوق بغداد تدل على معرفة راويها لجغرافيا البلاد

وتبدأ رواية سيف بن عمر عن الخنافس التي جاء خبرها في حوادث سنة ١٣ هـ بنزول المثنى في « ألّيْس » ، قرية من قرى الأنبار ، وإخبار الرجلين أياه بسوق الخنافس وسوق بغداد ولما سألهما : أيهما أعجل ؟ أجابا : سوق الخنافس وهي سوق يتوافى اليها الناس وتجتمع فيها ربيعة وقضاعة والخبر هذا يتفق مع ما رواه المدائني عن سوق بغداد . فبدأ المثنى بسوق الخنافس وأنتسفه ، وسلب الخفراء ثم عاد يطرق دهاقين الأنبار ، فقدموا له العلف والأرزاق ، وأتوه بالأدلاء على سوق بغداد ولم يشر البلاذري ولا المدائني الى سوق الخنافس في حوادث سنة ١٢ هـ ترى هل وقعت وقعة الخنافس في سنة ١٣ هـ بعد أنتصار المسلمين على الفرس في معركة البُوَيْب ، فخلط سيف أخبارها بأخبار سوق بغداد ؟ إن سياق الخبر يوحي بأن الوقعة جرت بعد فتح الأنبار بمدة طويلة ، حينما كان المسلمون يصولون ويجولون في أطراف الأنبار ، ويطلبون الى الدهاقين والمرازبة تقديم الأرزاق والعلف ومساعدتهم على توجيه الإغارات ، حتى إن المثنى يطلب من مرزبان الأنبار نصب الجسر ، مما يدل على أن المثنى كان في الضفة اليمنى ، وأراد العبور الى الضفة اليسرى في الأنبار ، ليبدأ بإغارته . وقد حقّق « موسل » مواقع الإغارة على السوقين في كتابه الفرات الأوسط [١] ، وذكر أن سيف بن عمر في روايته

(١) الفرات الأوسط : هامش (ص. ١٣٤) .

عن « مُحفِّـر » عرّف المنطقة التي جرت فيهـا الحركات إن المنطقة بين الأنبار وسوق بغداد تقطعها أنهر تأخذ الماء من الفرات وتصبه في اُتجاه دجلة

ويظهر من نص الرواية أن المثنى أهم كثيراً بكتمان خبر الإغارة ، وجعل حركته ليلاً ، ولم يأمن أهل القرى التي مرّ بها ، إما حبسهم لـكيلا يسبقوا الأخبار وقد نجحت إغارته على السوق ؛ لأنه باغت أهلها .

ونذكر فيما يأتي رواية سيف بهذا الصدد ، نقلها عن عبد الله بن محفِّـز قال محفّـز : « قال رجل من أهل الحيرة للمثنى : ألا نَدُلُّـك على قرية يأتيها تجار مدائن كسرى والسواد ، ويجتمع بها في كل سنة مرة ، ومعهم فيها الأموال كبيت المال ، وهذه أيام سوقهم ، فان أنت قدرت أن تُغير عليهم وهم لا يشعرون أصبت فيها مالاً يكون غناء للمسلمين ، وقووا به على عدوهم دهرهم ؟ قال : كم بين مدائن كسرى وبينها ؟ قال : بعض يوم ، أو عامّة يوم قال : فكيف لي بها ؟ قالوا : نأمرك ــ إن أردتها ــ أن تأخذ طريق البر حتى تنتهي الى الخنافس ، فإنّ أهل الأنبار سيضربون اليهـا ، ويخبرون عنك ، فيأمنون ثم تعرج على أهل الأنبار ، فتأخذ الدهاقين بالأدلاّء ، فتسير سواد ليلتك من الأنبار ، حتى تأتيهم صبحاً فتصبحهم غارةً فخرج المثنى من أُلَّـيس حتى أتى الخنافس ، ثم عاج حتى رجع الى الأنبـار فلما أحس صاحبه ، تحصّـن وهو لا يدري من هو ، وذلك ليلاً فلما عرفه ، نزل اليه ، فأطمعـه المثنى ، واستـكتمه ، وقال : إني أريد أن أغير ، فأبعث معي الأدلاّء الى بغـداد ، حتى أغير منها الى المدائن قال : أنـا أجيء معك قال : لا أريد أن تجيء معي ، ولـكن أبعث معي من هو أدلّ منك فزوّدهم الأطعمةَ والأعلاف ، وبعث معهم الأدلاء ، فساروا ، حتى اذا كانوا بالنصف ، قال لهم المثنى : كم بيني وبين هذه القرية ؟ قالوا : أربعة أو خمسة فراسخ فقال لأصحابه : من ينتدب للحرس ؟ فانتدب له قوم قال : أذكوا حرسـكم ، ونزل وقال : أيّها النـاس ! أقيموا واطعموا ، وتوضؤوا ، وتهيّـؤوا وبعث الطلائع ، فحبسوا الناس ، ليسـبقوا الأخبار فلما فرغوا ، أسرى اليهم آخر الليل ، فعبر اليهم في أسواقهم ، فوضع فيهم السيف ، فقتل ، وأخذوا ما شاؤوا ، وقال

المثنى : لا تأخذوا إلاّ الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع الا ما يقدر الرجل على حمله على دابّته وهرب أهل الأسواق ، وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء . ثم خرج كارّاً حتى نزل بنهر السيلحين بالأنبار » وأخيراً قال الراوي : « وأقبل بهم ، ومعهم أدلاؤهم يقطعون بهم الصحاري والأنهار ، حتى أنتهى بهم الى الأنبار [1] ».

وقد يظهر من فحوى الرواية أن الإغارة على سوق الخنافس وسوق بغداد بدأت من الأنبار مما يدل على أنها وقعت بعد فتح الأنبار . وينبغي أن لا يُفهم أن دهاقين الأنبار كانوا يسكنون الأنبار . والدهقان هو صاحب المقاطعة من أهل البلاد ، يسكن القرى الواقعة في طسوج الأنبار فلا يستبعد أن خالداً حينما أقدم على فتح الأنبار ، بعث المثنى للإغارة على قرى الأنبار . فقام المثنى بإغارته مصحوباً بالأدلاء الذين هيأهم له الدهاقين

بين « موسل » في كتابه « العراق الأوسط » أن رواية سيف توصلنا الى معرفة موقع الخنافس ، وقال : إن ثمة طريقاً يربط الأنبار بالخنافس ، وإن نصف المسافة بين الأنبار والخنافس يبلغ أربعة فراسخ أو خمسة ، ويمتد الطريق بمحاذاة جدول السيلحين ، ويجتاز نهراً آخر قبل أن يصل الى الخنافس ووجود السوق في الخنافس ، يدل على أن الموقع هذا كان محطة القوافل التجارية ، وأنه قريب من موقع بغداد القديمة . ويظهر مما ذكره سيف وياقوت أن الخنافس من طسوج البردان يمكن تثبيته في غربي قصبة « الكاظمية » الحاضرة التي تبعد عن الأنبار زهاء خمسة وخمسين كيلو متراً ، أي زهاء عشرة فراسخ أما النهر الذي قطعه المثنى فلعله نهر دُجَيْل القديم وأما السيلحون ، فذكر « موسل » أنه موقع الصالحين الحديث الواقع غربي بساتين « الكاظمية » على بعد عشرين كيلو متراً على طريق الأنبار

بقي أن نعرف متى بعث خالد المثنى للإغارة ، وأي طريق سلك في إغارته ؟ ذكر الطبري أن كتاب صلح الحيرة كتب في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ ، وأن كتاب صلح بانقيا وباروسما كتب في صفر للسنة نفسها ولكننا نعلم أن الطبري جعل فتحها بعد الحيرة . ولعلّ الطبري

(١) الطبري (٢/٦٥٥ـ٦٥٦)

٦

في اشارته الى هذا التأريخ جارى راوي المدينة الواقدي وأبن اسحاق اللذين قدما فتح بانقيا وباروسما على فتح الحيرة ، لهذا نجزم بأن كتاب صلح بانقيا كتب في شهر ربيع الأول أيضاً ، ويوافق أول شهر ربيع الأول ١٥ أيار سنة ٦٣٣ م وفي رواية لسيف بن عمر أن خالداً جبى الخراج في خمسين ليلة[1] واذا صحت الرواية يكون خالدٌ قد قضى في الحيرة أكثر من شهر ونصف شهر ، لتوطيد الحكم في البلاد التي فتحها وقبض الخراج من أهلها ، لهذا يجوز أن الإغارة وقعت على سوق بغداد بعد فتح الحيرة بنحوٍ من شهر وأكثر ، أي في نهاية شهر ربيع الآخر . ويصادف هذا التأريخ منتصف تموز

ومما يدل على أن خالداً بعث المثنى الى سوق بغداد قبل فتح الأنبار ، سكوت أكثر الروايات عن أشتراك المثنى في فتح الأنبار ولعل الرواية التي أشارت الى أن المثنى قبل إغارته على سوق الخنافس طلب من مرزبان الأنبار مساعدته ، رواية تشير الى حوادث وقعت سنة ١٣ هـ ، أي بعد موقعة البُوَيْب ، إذ فسح للمسلمين أن يجوبوا في البلاد وعلى رأسهم المثنى واذا كان حقاً أن أحد الحيريين دل خالداً على سوق بغداد ، فلا نستبعد أن الإغارة وقعت حينما كانت بعوث خالد يشنون الإغارات في الأطراف بين الفرات ودجلة ، ويقبضون الخراج واذا صح ظننا هذا ، يكون المثنى قد عبر الفرات في جوار قسياثا ، وسلك الطريق المحاذي للضفة اليسرى للفرات ، ثم عرج على السوق

فتح الأنبار : لقد لاح لنا من تقدير الموقف الحربي أنه لا يجوز لخالد أن يعرض خلفه للخطر ، ويقدم على فتح عين التمر ما دامت الأنبار بيد الفرس واذا صدقت الرواية التي تزعم أن خالداً قضى خمسين ليلة في الحيرة ، فان حركته الى الأنبار تصادف أوائل جمادى الأولى ، ولكن هناك رواية تشير الى أن فتح عين التمر تم في شهر ربيع الآخر ، ومعنى ذلك أن حركات خالد في العراق من أطراف البصرة الى عين التمر حشدت في شهرين ؛ لأنه بلغ أطراف البصرة في أوائل صفر سنة ١٢ هـ ، لهذا لا نحسب أن التأريخ الذي ورد في فتح عين التمر صحيح

(١) الطبري (٢/٥٧٢)

ليس في روايات فتح الأنبار إشارة الى أن خالداً عبر جسراً ، هل كان الجسر معقوداً في زمن الفتح ، أو أن قائد الحامية في الأنبار أمر بإغلاقه بعد أن تواردت الأخبار عن أنتصارات المسلمين وفتحهم للحيرة ؟ ومن المعقول أن يُغلق الجسر بسحب « الجسّاريات » الى الضفة اليسرى ، لأن الفيضان في الفرات يبدأ في شهر نيسان ، ويبلغ ذروته في أيّار ، وتبقى مياهه مرتفعة في شهري حزيران وتموز وفي هذا الشهر ، أي نيسان ، يصعب عبور الفرات خوضاً ، لهذا لا نرى أن المخاضات وقتئذٍ كانت مساعدة على الخوض .

وكان سيف بن عمر الراويَ الوحيد الذي فصل بعض التفصيل فتح الأنبار ، ويبدو أن المؤرخين الذين كتبوا بعد الطبري أستندوا الى رواية سيف بن عمر في تسجيلهم أخبار الفتح . روى سيف أن خالداً خرج من الحيرة الى الأنبار وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، وأستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو والطريق بين الحيرة والأنبار يمتد غربي الفرات بعيداً عن ضفة النهر ، ويمر بكربلاء وفي الرواية إشارة الى أن خالد بن الوليد سلك الفلوجة ، ونزل بكربلاء . والفلوجة هذه ليست « الفَلوُّجة » الحاضرة ، انما هي احدى قرى الفلاليج الأعلى وذكرت الرواية أن شيرزاد كان قائد الحامية الفارسية ، وكانت قليلة القوة كما بيّنّا ، مرابطة في حصن المدينة وأوضحت الرواية أن أهل الأنبار لمّا شاهدوا جند خالد ، تحصنوا وخندقوا عليهم ، وتصايحوا من أعلى السور ويفهم من الخبر أن المقدمة بقيادة الأقرع بلغت الأنبار أولاً ، ثم جاء خالد فأطاف بالخندق وأنشب القتال ووصفت الرواية خالداً أنه كان قليل الصبر عن القتال ، وذكرت أنه أوصى رجاله أن يرموا عيون الأعداء ، ولا يتوخوا غيرها فلما رمى جنوده رشقاً واحداً ، ثم تابعوا ففُقئت ألف عين يومئذٍ ، فسميت تلك الوقعة « ذات العيون » . ولما تصايح عرب الأنبار قائلين ذهبت عيون الأنبار ، راسل شيرزاد خالداً في الصلح على أمرٍ لم يرضه خالد ، فرد رسله . ثم أتى أضيق مكان في الخندق برَذَايا [1] الجيش ، فنحرها ، ثم رمى بها فأفعمه ثم فتح الخندق والرذايا جسور ، فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق ، وأرز القوم

(١) الرذايا : ضعاف الإبل ينحرونها للأكل

الى حصنهم ، ودعا شيرزاد ، وراسـل خالداً في الصلح على ما أراد ، فقبل منه على أن يخليـه ويلحقه بمأمنه في جريـدة ليس معهم من المتاع والأموال شيء هذه هي رواية سيف بن عمر عن فتح الأنبار [١] أما ابن خلدون ، فيظهر أنه اختصر رواية سيف بقوله : « ثم سار خالد (من الحيرة) على تعبئته الى الأنبار ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، فكان بالأنبار شيرزاد صاحب ساباط ، فحاصروهم ، ورشقوهم بالنبـال » الى أن قال : « ثم نحر ضعاف الإبل ، وألقاها في الخندق ، حتى ردمه بها ، وجازه هو وأصحابه فوقها ، فاجتمع الكفار والمسلمون في الخندق ، وصالح شيرزاد على أن يلحقوه بمأمنه ، ويخلي له عن البلد وما فيها [٢] » .

وذكر البلاذري فتح الأنبـار باقتضاب ، واكتفى بالقول « إن خالداً أتى الى الفلاليج مُنْصَرَفَهُ من بانقيا ، وسار الى الأنبار ، فتحصّن أهلها ، فحاصرهم خالد الى أن عاد المثنى من إغارته على سوق بغداد ، فاشتـد الحصار ، وأحرق المسلمون النواحي فلما رأى أهل الأنبار ما نزل بهم ، صـالحوا خالداً على شيء رضي به ، فأقرهم » ولـكنه بعد أن ذكر ذلك ، عاد وذكر : « أن مشايخ أهل الأنبار حدثوه أنهم صـالحوا في خلافة عمر على طسوجهم ، وتولى الصلح جرير بن عبد الله البَجَلي [٣] » وذكر المدائني أن « خالد بن الوليد أتى الأنبار ، فصالحوه على الجلاء ، ثم أعطوا شيئاً رضي به ، فأقرهم [٤] »

هذه كل الأخبار عن فتح الأنبار ويُفهم من رواية سيف بن عمر أن رجال خالد باغتوا أهل الأنبار ويتبين من الروايات أن الحامية الفارسـية كانت قليلة العدد ، وأن خالداً رضي أن تترك المدينة ، وتسير الى مأمنها بحراسة جريدة من الخيل ويتبادر من هذا الى الذهن هذا السؤال : أي طريق سلـكت مقدمـة خالد ، ومن أي محل عبر خالد الفرات ؟ وهل الأخبار تخص محاصرة المدينة أو محاصرة الضاحية المقابلة للمدينة والواقعة في الضفة اليمنى ؟ هـذه أسئلة من العسير الاجابة عنها ، وقد بيّنـا سابقاً أن مياه الفرات كانت ما تزال يومئذٍ مرتفعة ، فاذا

(١) الطبري (٢/٥٧٥)
(٢) ابن خلدون (٣/٨١)
(٣) البلاذري (ص ٢٤٧)
(٤) الطبري (٢/٥٨٤)

ساعدت على خوض الخيل بعض المخاضات ، فانها لا تساعد على عبور الإبل واذا كان خالد عبر الفرات على جسر ، فأي جسر هذا ؟ وهل كان يوجد شمالي النخيلة جسر ثانٍ ؟ فنحن نعلم أن الجسر الذي يربط الحيرة بالمدائن كان في أطراف قسياثا ولم نعثر في جميع الروايات على خبر يشير الى أن خالد بن الوليد عبر الفرات قبل وقوفه أمام خندق الأنبار ، هل عبر الفرات على جسر قسياثا وسار على الضفة اليسرى الى الأنبار ؟ وهذا مسير يتعرض فيه للخطر من الجانب الأيمن ، أو أن رواية نحر ضعاف الإبل وإلقائها في الخندق لتكون جسراً تشير الى وقائع جرت في الضاحية المقابلة للأنبار ؟ وهل كانت هنالك ضاحية ؟

الواضح من الروايات أن مدينة الأنبار ، أو ضاحيها ، أستسلمت لخالد من غير مقاومة تذكر ؛ لأن القتال لم يتعدَّ الرشق من على الأسوار بالنبال ، وأصطدامَ المسلمين والمشركين في الخندق ويبدو مما أورده البلاذري أن الذي أضطر أهل الأنبار الى الأستسلام بعد أن خندقت الحامية في الحصن ، هو بث المسلمين رجالهم في الأطراف وحرقهم النواحي . ومن الطبيعي أن تكون للأنبار مزارع وبساتين ، مما يدل على أن المسلمين هددوا أهل الأنبار بقطع النخيل وحرق الأطراف ، لذلك لم يصبر الأهلون على المقاومة ، ولا سيما أن الحامية كانت لا تستطيع طرد المسلمين ، فأجبروا قائد الفرس شيرزاد على قبول ما رضي به خالد ، وكان قبل ذلك عرض شروطاً لم يرضها

وسمح خالد للحامية أن تغادر ، وعقد الصلح مع أهل الأنبار بالشروط التي أملاها عليهم ، وأرفق الحامية بحرسٍ من رجاله لئلا يصيبها مكروه في طريقها الى المكان الذي تأمن فيه . وجاء في رواية سيف : أن شيرزاد قدم على بهمن جاذويه ، وأخبره بما جرى ، فلامه على تصرفاته . أين كان بهمن جاذويه ؟ هل كان في المدائن أو في ساباط أو بهرسير ، والموقعان من ضواحي المدائن على الضفة اليمنى من دجلة ؟

لقد أنكر « كيتاني » على عادته وقعة الأنبار بالرغم من أعتماده على رواة المدينة ، مع أن المدائنيّ الذي ذكر الفتح منهم ، ورأى أستحالة عبور خالد النهر ومحاصرته للأنبار . وفي رأي

« كيتاني » أنه ما دام الواقدي وأبن اسحاق لم يذكرا خبر الإغارة على سوق بغداد ، ولم يشيرا الى فتح الأنبار ، فلا الإغارة وقعت ، ولا الفتح وقع بحسب أجتهاده

ومن الأسباب التي أوردها في إنكار الفتح أن خالداً لا يستطيع عبور النهر من غير مساعدة الأهلين ، وأنه لم يذهب الى العراق للفتح ، فهو لهذا لايضيع وقته بمحاصرة المدن ، ولا سيما أنه لا يملك آلات الحصار

صحيح أنه لا يمكنه العبور من غير مساعدة الأهلين ، ولكن الروايات دلت على أن الأهلين لم يكونوا قلباً وقالباً مع الفرس فقد أبدينا فيما سبق مخالفتنا لرأي « كيتاني » في مهمة خالد ؛ لأن جميع الحوادث تدل بصورة لا تقبل الجدل أن خالد بن الوليد أتى العراق لفتح ما يستطيع فتحه وفي الحق أنه لو لم تقم العراقيل بوجه عياض بن غنم ، ولو أنه أتى العراق بعد فتح خالد للحيرة ، لكان هذا القائد الهمام قد أقدم على فتح المدائن كما تمنى ذلك وتحسر عليه ذكر الطبري أن خالداً بعد فتح الحيرة ، قال للمسلمين : « لو لا ما عهد الي الخليفة ، لم أتنقذ عياضاً ، وكان شجى وأشجى بدومة ، وما كان دون فتح فارس شيء » وأضافت الرواية أنه كان قد « عهد اليه أن لا يقحم عليهم (الفرس) وخلفه نظام لهم ، وكان بالعين عسكر لفارس ، وبالأنبار آخر ، وبالفراض آخر[1] » ونقول : إنه لو لم يقصد خالد الفتح ، لما فتح الحيرة وأستقر بها ردحاً من الزمن ، ولما بث العمال في الأطراف لجباية الخراج ، ولما فتح عين التمر وأستخلف الأمراء على إدارة البلاد التي فتحها

عين التمر : لقد ثبتنا في بحثنا لجغرافيا العراق موقع عين التمر في زمن الفتح العربي[2] ، وذكرنا أنها تقع في أطراف قرية « شفاثا » أو « شثاثة » كما يلفظها الأهلون وهي على بعد أثني عشر كيلو متراً شمالي القرية ، وذكرها ياقوت في معجمه وقال عنها : إنه يجلب منها القسب والتمر الى سائر البلاد وهو بها كثير جداً ، وهي على طرف البرية ، وهي قديمة أفتتحها المسلمون أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ هـ ، وكان فتحها عنوة وذكر

(١) الطبري (٢/٥٧٣) (٢) الجزء الأول من المجلد الثالث من مجلة المجمع العلمي العراقي

الطبري أنها فتحت على يد خالد قبل سفره الى الشام في السنة ذاتها

أما البلاذري ، فبينما أشار الى أن فتحها تمّ قبل أخذ خالد كتاب أبي بكر بالذهاب الى الشام ، ذكر في محل آخر عند كلامه على شخوص خالد الى الشام وما فتح في طريقه : أن خالداً سار في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ، فأتى عين التمر ففتحها عنوة ، ثم أضاف قائلاً : ويقال إن كتاب أبي بكر وافاه وهو بعين التمر وقد فتحها ، فسار خالد من عين التمر الى صندوداء [1] . وأشار اليعقوبي أيضاً الى أن خالداً فتح عين التمر بعد أخذه كتاب أبي بكر بالسفر الى الشام .

لقد ثبتنا في مقالنا عن سفر خالد بن الوليد الى الشام [2] : أن خالداً أخذ كتاب أبي بكر بالسفر بعد عودته من حجته الى الحيرة ، أي في نهاية سنة ١٢ هـ ، وأشرنا الى خلط الرواة وتقديمهم بعض حركات خالد على غيرها . وما تزال عين التمر على طرف البادية بعيدة عن القسم المعمور من أرض السواد ، وفي أطرافها عيون كثيرة غرست عليها أشجار النخيل بكثرة ، وساعدت مياهها على نموّ النخيل لملوحها وكانت عين التمر والأنبار والفراض من المراكز التجارية المهمة ، وكان الذي يملكها ويسيطر على دومة الجندل في وادي السر يصبح حاكماً على البادية الشمالية من جزيرة العرب وكانت العين ملتقى طرق عديدة : طريق الحيرة الى الجنوب الذي يمر بالقطقطانة والرهيمة ، وطريق كربلاء شرقاً الذي يمر بدير قرة وينتهي بالنخيلة حيث يلتقي بطريق الحيرة — الأنبار ، وطريق صندوداء شمالاً ، وطريق آخر يمتدّ الى الشمال الغربي ويمر بالجناب والخنافس وينتهي بالفراض الواقع على ضفة الفرات اليمنى ، وكانت على ملتقى الحدود الفارسية البيزنطية .

وكانت عين التمر محصنة ، وعلى شرقيها يقع « قصر مقاتل » الذي ورد ذكره في حوادث القرن الأول الهجري وأقام الفرس بها حامية يسندها بنو تغلب الذين كانوا حلفاء الفرس ، وكانت العين في ديارهم ولعل وقوف قبائل بني بكر بجانب المسلمين والانتصارات التي نالها

(١) البلاذري (ص ١١٨)

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد نشر المقال في أجزائها ، وطبع مستقلا أيضاً

المسلمون بمعونة هذه القبائل ، قد غاضت بني تغلب ، وجعلتهم يتحزبون للفرس أكثر فأكثر .

لقد فتح خالد الأنبار ، وبذلك أكمل فتح جميع البلاد التي على ضفة الفرات الغربية من الأُبُلَّة الى الأنبار ولم يكتف بذلك ، بل بسط نفوذه على البلاد التي بين الفرات ودجلة ، وانتشر رجاله فيها غازين ، حتى أوصلت الروايات سراياه الى السيب بجوار العزيزية لهذا رأى خالد بعد هذا النجاح الذي ناله في مدة قصيرة أن يلتفت الى العمل الذي أمره به أبو بكر حين وجهه الى العراق بأن يستبق هو وعياض بن غُنم الى الحيرة ، وأن يكون السبّاق ردءاً للآخر . فكان خالد السبّاق ، فليكن رِدْءاً لعياض الذي ظل متردداً أمام دومة الجندل التي قالت الرواية إنها أشجت عياضاً وشجت . ولكن كيف يذهب الى نجدة عياض وحصنُ عين التمر ما يزال بيد الفرس ، وهو حصن حصين تجمعت به تغلب ؟ ولا بدّ أن خالداً أُستخبر أن الفرس يحرّضون بني تغلب عليه ، ويمدونهم بالمال ، ليعرقلوا فتوحاته ، وبذلك يتسنّى للفرس اهتبال الفرص لأسترداد ما أضاعوه من ممتلكات في العراق ، لهذا ما إن أتمّ خالد فتح الأنبار ، أو ازالة خطره على الأقل ، إلّا نراه يتوجه الى عين التمر وأختلفت الروايات في زمن فتح عين التمر كما بينا ، حتى إن بعض الروايات جعلت فتح الأنبار أيضاً تمَّ بعد أخذ خالد كتاب الخليفة بالسفر الى الشام وقد فندنا هذه الروايات في مقالنا المذكور ، وأستبعدنا قيام خالد بأعمال تؤخر سفره الى الشام ، وقد أمر أن يسرع الى نجدة مَنْ بالشام ، وبينا بوضوح أن خالداً أخذ كتاب الخليفة بعد أن أكمل فتوحات العراق وعودته من الحج في نهاية سنة ١٢ هـ وأشارت بعض الروايات الى أن خالداً مرَّ في طريقه الى الشام بعين التمر وفتحها . وقد أثبتنا في مقالنا سفر خالد بن الوليد الى الشام أنه ذهب من الحيرة ، ومرَّ بدومة الجندل ، ومنها عرج على المفازة بين قراقر وسوى ، فقطع المفازة ووصل الى الشام لهذا نرى أنه ذهب من الأنبار ماراً بصندوداء في طريقه الى عين التمر لفتحها ، وهذا هو الطريق الأقصر . وتقع قرية صندوداء ، كما ذكرنا قبلاً ، على الضفة اليمنى من الفُرات شمال غربي الأنبار وجنوب شرقي الرمادي على بعد زهاء عشرين كيلو متراً ، ويطلق على موقعها أسم « المشهد » أو « المُشَيهد » حيث تقام

جواره ســدة لتحول دون تسرب مياه بحيرة الجبانيـة عملاً بمشروع توسـيع البحيرة . وفي الأخبار ما يشير الى أن صندوداء فتحت بعد الأنبار ، وأن خالداً ولى أحد رجاله عليها .

فتح عين التمر : روى سـيف بن عمر عن فتح عين التمر ، قال : « لمّا فرغ خالد من الأنبار ، واُستحكمت له ، اُستخلف على الأنبار الزبرقان بن بدر ، وتصدى لعين التمر وبهـا يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لفّ لفّـهم فلما سمعوا بخالد ، قال عقة لمهران : إن العربَ أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالداً قال : صدقت ، لَعَمْري لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنـكم لمثلنـا في قتال العجم فخدعه واتّقى به ، وقال : دونكوهم . وإن اُحتجتم الينا أعنّـاكم [1] » ويُفهم من هذه الرواية أن قوة الفرس في عين التمر كانت قليلة ، وهذا ينطبق على الموقف العام ولمـا لم يستطع الفرس حشد قوات كافية للدفاع عن أرض السواد ، لم يستطيعوا إقامة حامية كافيـة في عين التمر ويفهم أيضاً أن قائد الفرس مهران شجع عقة على مقاتلة خالد ، وخدعه ومـما يؤيـد ذلك ما ورد في رواية سيف بن عمر حين أشار الى أن الفرس اُستقبحوا عمـل قائدهم ، فسألوه : ما الذي حمله على ما قاله لعقة ؟ فقال لهم : « دعوني ، فإني لم أرد إلّا ما هو خير لكم ، شرّ لهم فان كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يَهِنُوا فنقـاتلهم ، ونحن أقوياء وهم مضعفون » وذكر البلاذري أن عين التمر كانت مَسْلَحة للأعاجم عظيمة ، وسمى الرئيس العربي فيها هلال بن عقة بن قيس بن بشر النَّمَرِيّ ، وقال الـكلبي : إنه كان يومئذ على عين التمر يومئذٍ عقة بن قيس بن البشر ويبدو أن مهران كان يرمي من تشجيع عقة على مقاتلة خالد أن ينشب القتال بين المسلمين والعرب من النمر ، وبذلك تشتد الخصومة بين تغلب والمسلمين ، كما ظهر أثرها في الحركات التي جرت في بلاد تغلب بعد عودة خالد من دُومة الجندل

لم ينتظر عقة قـدوم خالد الى عين التمر ، إنما اُعتزم مقابلته على الطريق وجاء في روايـة

(١) الطبري (٢/٥٧٦)

سيف : « نزل عقــة لخالد على الطريق ، وعلى ميمنته بجير بن عبيد ، وعلى ميســرته الهذيل بن عمران ، وبين عقة ومهران رَوْحة أو غدوة ، ومهران في الحصن في رابطة فارس ، وعقة على طريق الـكرخ كالخفير (١) » ويتبين من ذلك أن عقـة أقام نفسه قوة أمامـيّة كما يعبر عنه في التعبئة العسكرية ، مهمها مراقبة تقدم العدوّ ومقاومته ما أمكن ذلك ، حتى يتيسر للقوات الخلفية الاستعداد للدفاع ، مما يدل على أن القائد الفارسي بعثه ليناوش المسلمين من أمام ولقد لفت نظرَ « موسل » ذكرُ سيف بن عمر « الروحة » و « الغدوة » فقال : إن البدو مازالون يستعملون هذين التعبيرين في أسفـارهم ، وهمـا يبيّـنان المسافة التي قطعها عقة من عين التمر في مسيره الى الشمال الشرقي والروحةُ مسيرُ يوم ينتهي قبل المساء ، أما الغدوة فالسير الى ما بعد المساء أو إلى طلوع الشمس والمسافة بين عين التمر والأنبار على صنـــدوداء زهاء عشرين كيلو متراً ومئة . واذا سار المسافر الى الانبار من دون أن يمر بصندوداء ، فالمسافة زهاء تسعين كيلو متراً ويمر الطريق الأول بمنخفَـض الحـبّانية ، أما الطريق الثاني فيجتاز هور أبي دبس . والطريقان لابد أن يمرا بمستنقعات الحبانية وهور أبي دبس ، والفيضان يؤدي إلى أن تغمر مياه الفيضان الأطراف وتجعلها بحيرة . واستند « موسل » الى هـذا الحادث ، وقال : إن الـكرخ ربما كان قبلاً اسماً لبحيرة الحبانية واذا سار عقة مسافة روحةٍ ، يكون قد انتظر ورود خالد في مكان بعيد عن عين التمر زهاء ستين كيلو متراً والطريق في هذا المـكان يمر بالمستنقعـات التي تضطر المســافر أن لا يحيد عن الطريق ، ومعنى ذلك أن عقة اختار موقعاً يستطيع بــه أن يعرقل هجوم خالد ولكن هذا الموقع لم يُجْـدِهِ نفعاً ؛ لأن سيفاً ذكر في روايته « أن خالد ابن الوليد قدم على عقــة ، وهو معبيء جنده ، وقال لمجنّـبته : اكفونا ما عنده ، فإني حامل . ووكل بنفسه حوامي ، ثم حمل وعقة يقيم صفوفه ، فاحتضنه ، فأخذه أسيراً ، وانهزم صفه من غير قتال ، فأكثر المسلمون فيهم الأسر ، وهرب بجير والهذيل ، واتّـبعهم المسلمون » . واذا صحّت هذه الرواية ، يكون خالد قد باغت عقة ، ووصل الى مكانه وهو على تعبئته ، فلم يمهل

(١) الطبري (٢/٥٧٧)

عقة أن يقيم صفوفه ، بل طلب الى الميمنة والميسرة أن تُناوشا مَنْ يإزائهما ، وحمل هو بالقلب ، وحمى جانبيه بالجوامي ، وهزم جند عقة بعد أن أسره ولم تذكر كتب التاريخ الأخرى هذا الاصطدام خارج عين التمر ، وتكاد تشير جميعها الى أن القتال جرى في عين التمر ، فذكر البلاذري أن خالداً بعد فتحه الأنبار أتى عين التمر فألصق بحصنها ، وأشار الى قتال وقع بين خالد وعقة ، وقال : إن هلال بن عقة بن قيس بن البشر النَّمَريّ ، على النَّمِر بن قاسط ، كان بعين التمر مجمعاً لخالد ، وقاتله ، فظفر به خالد ، إذن لم يجد عقة الموقع الذي اختاره . وربما كان يتوقع أن يجبر المسلمين على قتاله فى مكان غير مناسب ، باغته خالد ، ولعله سلك طريقاً لم يتوقع عقة أن يسلكه

أما مهران قائد حامية عين التمر الذي تحصن بحصنها ، فانه لما جاءه الخبر بهزيمة جند عقة ، ترك الحصن ، وهرب بحاميته ولعله توجه الى الشمال ليحتمي ببني تغلب . وذكر سيف أن فلال عقة من العرب والعجم انتهت الى الحصن فاُقتحموه واُعتصموا به ، وأن خالداً أقبل برجاله ونزل على الحصن ، ومعه عقةُ أسير . وكان خالد يتمكن من اُقتحام الحصن مع المنهزمين لو لم يكن التعب قد نهك رجاله ؛ لأنهم قطعوا نصف الطريق بين الأنبار وعين التمر ، وقاتلوا عقة ، وكان لابد لهم أن يستريحوا قليلاً قبل اُستئنافهم السير لمطاردة العدو

لقد ظن الذين اُعتصموا بالحصن أن يكون خالد كمن كان يغير من العرب يمر بالحصن ويغتنم ما يستطيع أن يغتنم ، ويذهب تاركاً الحصن لأهله . ولكنهم رأوا أنه يريد فتح الحصن ، لهذا لم يروا بدّاً من أن يسألوه الأمان ، ولم يكن في امكانهم المقاومة بعد هزيمة عقة وهرب مهران برجاله أما خالد ، وقد نقم عليهم لمساعدتهم الفرس والتصدي لمقاتلته وهم من العرب ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، فاضطروا الى فتح باب الحصن ، واستسلموا له وذكر سيف أن خالداً « أمر بعقة ، وكان خفير القوم ، وضربت عنقه ، ليوئس الأسرى من الحياة » . وهكذا ضرب أعناقهم جميعاً ، وبذلك تم لمهران ما أراد من توسيع الشقة بين المسلمين وتغلب ، وسنرى آثار ذلك فيما بعد

وروى أبو يوسف في كتاب الخراج فتح عين التمر ، وخبر الفتح هذا لا يختلف في روايته عن وصفه لفتوحات خالد الأخرى قال أبو يوسف : « انتهى خالد من أهل الحيرة حتى أنتهى الى عين التمر فنزل بها ، وبها رابطة لكسرى في حصن ، وأستنزلهم ، فقتلهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وأخذ ما كان في الحصن من المتاع والسلاح والدواب ، وأحرق الحصن ، وخرب ، وقتل دهقان عين التمر ، وكان رجلا من العرب (يقصد عقة) ، وسبى نساءه وذراريه وأهل بيته » .

دومة الجندل : انتهى خالد من فتوحاته في العراق بفتحه « عين التمر » . وكانت عين التمر ، كما ذكرنا ، آخر ما يربط الفرس بالبلاد الواقعة الى غربي الفرات ؛ وكانت رابطة « الفُراض » بشمالي العراق واقعة على الحدود الفارسية البيزنطيه : القسم الشرقي الواقع على الضفة اليسرى بيد الفرس ، والقسم الغربي الواقع على الضفة اليمنى بيد البيزنطيين وبفتح « عين التمر » أنجز خالد أهدافه العسكرية ، ونفذ أمر الخليفة الذي ناط به فتح العراق .

ويظهر من رواية لسيف بن عمر (١) أن خالداً ، وهو ذلك القائد المقدام ، كان يطمح الى فتح العراق كله بأقتحام المدائن ، عاصمة الفرس الشتوية و (مستقر عز أهل فارس) كما وصفها أبو بكر ، وقد جاء في تلك الرواية قول خالد المسلمين : « لولا ما عهد إليّ الخليفة ، لم أتنقذ عياضاً ، وكان شجى وأشجى بـ « دومة الجندل » ، وما كان دون فتح فارس شيء ، إنها لسنة كأنها سنة نساء » .

لقد ذكر الطبري هذه الرواية قبل بحثه في فتح الأنبار وفتح عين التمر . ولكنّ سياق الكلام يدلّ على أن خالداً قال هذا القول بعد فتحه للأنبار ولعين التمر ، ونجدته عياضاً بدومة الجندل ، وأقتحامه حصنها ؛ كذلك يفهم من تلك الرواية أن نفس خالد كانت تتوق لفتح العراق بأقتحامه عاصمته « المدائن » .

أما أمر الخليفة ، فكان واضحاً ، يطلب اليه ألا يقتحم « المدائن » اذا لم يفض مسالح فارس ،

(١) الطبري (٢/٥٧٣) .

ويأمن أن يؤتى من خلفه ، ويكون عياض ردءاً له بالحيرة لهذا ما إنْ تسلّم كتاب عياض غِبَّ فتح « عين التمر » إلّا وأسرع الى نجدته

وذكر سيف بن عمر أن أبا بكر أرسل الوليد بن عقبة مدداً لعياض بن غنم ، وكان خالد بن الوليد قد بعث مع الوليد الأخماس الى « المدينة » ويظهر أن الخليفة لما علم أن عياضاً لم يستطع فتح دومة الجندل ، ويشق طريقه الى العراق ، اضطر أن يرسل اليه المدد وفي الرواية أن أهل الرأي أشاروا على عياض أن يبعث الى خالد ، ويستمده فعمل رأيهم فقدم رسوله على خالد غِبَّ وقعة عين التمر مستغيثاً ، فعجل الى عياض بكتاب قال فيه : « إيّاك أريد » ويتبيّن من الأخبار أن عياض بن غنم ظلّ متردداً في طلب النجدة من خالد ، ولعلّ الوليد بن عقبة هو الذي ألح عليه أن يستنجد بخالد

وكانت « دومة الجندل » على ملتقى طرق مهمة ، وهي : طريق دمشق ، وطريق المدينة ، وطريق الحيرة ، وطريق مصر وكانت القوافل التجارية بين بلاد الشام وبلاد الحجاز وبين العراق والشام تمرّ بها وهي واقعة في بطن وادي السر (وادي السرحان) الذي يقطعه طريق « دمشق — المدينة » ؛ وفي بطن الوادي مياه غزيرة كونت واحة ، فيها قرى أخرى وورد ذكر دومة في سِفر أشعيا في الأصحاح الحادي والعشرين ، وهو قوله : « وقر دومة يصرخ اليّ من سعير » وجاء خبرها في الكتابات الآشورية عن حروب ملك آشور سناحريب وأسرحدون باسم « أدومو ـ أدومات » وذكرها بلينوس باسم « دوماثا » ، وبطلميوس باسم « دوميثا » ، وجلوكوس باسم « دوماثا » . وسماها جغرافيو العرب « دُومة » و « دَوْمَة » و « دُومة الجندل » كناية عن الحجارة التي بُني بها حصنها ، وبينوا المراحل بينها وبين دمشق والمدينة والكوفة وتَيْماء وذكرها ياقوت في معجم البلدان ، وثبت قول أبي عبيد السكوني فيها : إنها حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلَيْ طيء « أَجَأ وسَلْمَى » ، كانت به بنو كنانة من كلب ، وقال : دومة من القريات ، من وادي القرى الى تيماء أربع ليال . والقريات : « دومة ، وسكاكة ، وذو القارة » فأما دومة ، فعليها سور

يتحصن به ، وفي داخل السور حصن منيع يقال له « مارد » ، وهو حصن أُكَيْدِر الملك ابن عبد الملك من كندة . وأضاف ياقوت أن أبا سعد قال إنها سميت دومة الجندل ، لأن حصنها مبني بالجندل

وكانت الواحة خاضعة لأمراء آل غسان ؛ لأنها داخلة في ساحة نفوذهم وهي من ديار قبائل كلب التي سكنت وسط بادية الشام ، وتمتد منازلها من جنوبي دومة الجندل الى شمالي قراقر ويتبين من أخبار الفتوح أن أحد الكنديين قد تملكها حينما كانت تمتد اليها سيطرة ملوك كندة ، وكان الأكيدر أميراً عليها في زمن الفتوح

وغزيت دومة الجندل لأول مرة سنة خمس للهجرة ، ثم غزاها عبد الرحمان بن عوف ، وغزاها للمرة الثالثة خالد بن الوليد سنة تسع للهجرة

وأفرد « موسل » في كتابه « البادية العربية (1) » فصلاً قيماً ذكر فيه أن قصبة دومة ما تزال تحوي عدة مجموعات من الدور تظللها بساتين النخيل ، وتحدها من الشمال والغرب والجنوب سفوح حجرية وتسمى مجموعات الدور بالقصور وأشار موسل الى أن الحصن أعيد بناؤه ، وكان من منعته أن قبائل « الرُّوَلَة » لم تستطع فتحه سنة (١٩٠٩ م) إلاّ بعد حصار دام عشرة أشهر

حوادث فتح دومة الجندل : ذكر ياقوت في معجم البلدان أن خالد بن الوليد فتح دومة الجندل في طريقه الى الشام ، وذكرت مثل ذلك بعض المصادر المدنية والكوفية أيضاً ولكن سيف بن عمر والمدائني ذكرا أن خالداً ذهب من عين التمر الى دومة الجندل مدداً لعياض ، وبعد أن فتحها كرّ راجعاً وقال المدائني : إنه أقام بالحيرة ، الى أن وافاه كتاب أبي بكر بالسفر الى الشام

وقد ثبتنا في مقالنا « سفر خالد بن الوليد من العراق الى الشام » بصورة لا تقبل الشك أن خالداً فتح دومة الجندل قبل سفره الى الشام ، وفي الحق إنه لو لم يفتح دومة الجندل قبل سفره

(1) Arabia deserta (ص ٥٤٩) .

هذا لكان صعب عليه كثيراً الإسراع الى الشام لنجدة المسلمين فيها كما أمره الخليفة ؛ لأن وقائع الفتح دلّت على أن خالداً لقي في حرب دومة الجندل مقاومة عنيفة ، فضلاً عن أنه ما كان خالد ليستطيع أن يشق طريقه الى المفازة بين قراقر وسوى قبل أن يقضي على كل مقاومة في واحة دومة الجندل

روى سيف بن عمر : « أن خالداً لمّا فرغ من عين التمر ، خلّف فيها عُويم بن الكاهل الأسلمي ، وخرج في تعبئته التي دخل فيها العين ولما بلغ أهل دومة مسير خالد اليهم ، بعثوا الى أحزابهم من بَهْراء وكلب وغسّان وتَنُوخ والضجاعم ؛ وقبل ما قد أتاهم وديعة في كلب وبهراء ومساندة أبن وبرة بن رومانس ، وأتاهم أبن الحدرجان في الضجاعم ، وأبن الأيهم في طوائف من غسّان وتَنُوخ ، فأشجوا عياضاً وشجوا به [1] » . ويفهم من الرواية أن جماعات من بهراء وكلب والضجاعم ، وهي من القبائل المجاورة لدومة الجندل ، كانت قد أتت قبلاً لنجدة أكيدر بن عبد الملك في قتاله لعياض بن غنم ، لأنها هي التي أشجت عياضاً . أما طوائف غسّان وتَنُوخ التي أشارت الرواية الى أنها كانت برئاسة أبن الأيهم ، فلعلّها كانت مرابطة في دومة الجندل ، لإشراف رئيسها على أمور الواحة وللدفاع عنها عند الحاجة . ولا نعتقد أن أبن الأيهم نفسه كان يرأسها ، هذا إذا كان أبن الأيهم هو جبلة أمير الغسانيين الذي حارب المسلمين في الشام كما فصلت خبره الروايات ؛ لأن رواية سيف ذكرت أن الجوع في دومة الجندل كانت على رئيسين : أكيدر بن عبد الملك أمير الواحة ، والجُودي بن ربيعة قائد الحامية من غسان وتنوخ وكانت الواحة خاضعة لأمراء آل غسان الذين حالفوا الروم في قتالهم الناذرة قبلاً ، وقاتلوا المسلمين في حروب الشام ، وكان نفوذهم يمتد من مرج راهط في شرقي دمشق الى دومة الجندل ، وكانت الحامية الغسانية دليلاً على سيطرهم على الواحة ومعنى ذلك أن أكيدر كان أمير الواحة ، ولكنه كان في الوقت نفسه خاضعاً لآل غسان ويجوز أن الحامية كانت قبلاً قليلة العدد ، ولكن حينما علم أكيدر وقائد الحامية أن عياض بن غنم توجه الى دومة الجندل ، طلبا مدداً من آل غسان ، فأنجدوها ، واُستنجدوا في الوقت نفسه بالقبائل

(١) الطبري (٢/٥٧٨) .

المجاورة : بهراء ، وكلب ، والضجاعم

وقد ذكر « موسل » الذي زار الواحـة ووصفها في كتابه « البادية العربية » أن أهل الواحة من عادتهم أن يدفعوا الضريبـة « الخوة » الى القبائل البـدوية التي تنزل في جوارهم وكان رؤساء كثيرون لهذه القبـائل يملكون بسـاتين النخيل في الواحة ، إما بالشراء ، وإما بالاغتصاب ولما كانت القبائل المذكورة تقبض الضريبـة ، لاحظوا أن من منفعتهم أن يحموا الواحة ، ويسرعوا الى نجدتها إذا علموا أن أهلها ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عنها وحدهم . وقال أيضاً : إن القبائل التي ذكرهـا سيف في روايتـه كانت لها منازل في شمالي الواحة وغربيها على أمتداد الطريق التجاري الذي يمر بوادي السرحان ، أي بطن السر ، ويتوجـه الى دمشق والى عمان والى مصر ، لهذا كان التجار يدفعون اليهم الضريبة وكان من منفعة القبائل أن يسارعوا للدفاع عن الواحة ؛ لأن المسلمين بقيادة عياض قد يجندون الجند من القبائل النـازلة الى جنوبي الواحة والى شرقـيها ، أو يشتتون شملها وإذا أضطر أهل الواحة الى الاستسـلام ، فلا تكون حينئذٍ حاجة الى نجدة القبائل ودفع الضريبة لها ، وفي ذلك خسارة كبيرة للقبـائل وذكرت الرواية أن القبائل المنجدة كانت على رئيسين : أكيدر وهو رئيس الواحة الوراثي ، والجودي وهو قائد الحامية كما أستنتجنا . وذكر « موسل » أن وجود رئيسين في دومة الجندل يمكن إيضاحه بأن كل واحة واسعة وكل قبيلة كبيرة تمين رئيسـين في الشـدائد ، أحدهما الوراثي أو الأمير ، والآخر الذي يترأس القبيلة في وقت الخطر ، بيد أنه في الحالات التي يظهر فيها الرئيس الوراثي أنه يفوق رجال القبيلة في الشجاعة ، لا تفتش القبيـلة عن قائد آخر ، أي الرئيس الحربي أو (عقيد الحرب) ؛ لهذا يجوز لنا أن نفترض أن أكيدر بن عبد الملك كان الرئيس الوراثي ، أي أمير الواحة ، وأن الجودي كان القائد العسكري عينـه الغسانيون .

ترى كم كانت قوة الحامية الغسّـانية ؟ وما عدد رجـال أكيـدر أمير الواحة ؟ وما القوة التي أستنجد بها من بهراء وكلب والضجاعم ؟ لم تشر الرواية الى ذلك ولـكن سـير الحركات في دومة الجندل دلّ على أن عياضاً لم يستطع التغلب على الحامية ورجال أكيدر والقبـائل التي

سارعب لنجدة الواحة ، فاضطر آخر الأمر الى الاستغاثة بخالد . واذا كان عياض لم يتغلب على المدافعين عن الواحة ، فانهم أيضاً لم يستطيعوا أن يهزموا عياضاً ، إنما سدوا بوجهه طريق العراق فقط

أما قوة عياض ، فلا نعلم عنها شيئاً ، ولم تشر الروايات الى مقدار قوات الفريقين . ويتبين من رواية سيف بن عمر عن الشعبي : « أن أبا بكر كتب الى عياض بن غنم ، وهو بين النباج والحجاز ، أن : سر حتى تأتي المصيخ ، فابدأ بها ، ثم أدخل العراق من أعلاها ، وعارق حتى تلقى خالداً ، فأذن لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتح بمكاره » والنباج التي ورد ذكرها هنا هو نباج بني عامر على طريق مكة ـ البصرة وذكر « موسل » أن النباج هو النبجية الحاضرة ، وهو على طريق البصرة ولما كانت حدود الحجاز الشرقية تمتد من تيماء الى الجنوب الغربي ، فالمنطقة التي كان عياض يعمل فيها تكون بين النباج وتيماء إذن كان عياض حين تسلمه كتاب أبي بكر بين النباج والحجاز

لماذا كان في هذا المحل ، وما كانت مهمته ولم يرد اسمه بين أسماء الأمراء الذين أوفدهم أبو بكر سنة إحدى عشرة للهجرة لمقاتلة المرتدين ؟ وقد جاء في الرواية أن أبا بكر عقد أحد عشر لواء ، ولم يرد في كتاب الخليفة اسم دومة الجندل ، ولا بدّ أن أبا بكر كان يعلم أن طريق عياض من النباج الى المصيخ يمر بدومة الجندل ألأنه كان آمناً أن عياض بن غنم لا يلاقي مقاومة فيها ، لأن صاحبها كان قد قطع عهداً بمسالمة المسلمين في زمن الرسول ؟

وجاء في الطبري في حوادث السنة التاسعة للهجرة : « أن الرسول دعا خالد بن الوليد الى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كنده كان ملكاً عليها وكان نصرانياً ، فقال الرسول لخالد : إنك ستجده يصيد البقر فخرج خالد ، حتى اذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة ، وهو على سطح له ومعه امرأته ، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت امرأته : هل رأيت مثل هذا قطُّ ؟ قال : لا ، والله ، قالت : فمن يترك هذا ؟ قال : لا أحد ، فنزل ، فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخ له

يقال له حسان ، فركب ، وخرجوا معه بمطاردهم فلما خرجوا ، تلقتهم خيل رسول الله ، فأخذته ، وقتلوا أخاه حسان ، وقد كان عليه قباء له من ديباج مُخوّص بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله قبل قدومه عليه[1] » . وفي رواية عن ابن إسحاق : « أن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلّى سبيله ، فرجع إلى قريته » . والمصيخ الذي ورد ذكره في كتاب أبي بكر ، والمقع في ديار بني تغلب في البادية التي تفصل العراق عن بلاد الشام ولعل عياض بن غنم قد أوفد إلى المكان الذي رابط فيه لغرض عسكري ، ليكون على استعداد للحركة الى العراق أو الى الشام حين الحاجة ، وليراقب سير الأحوال وما يجري في واحات وادي السر وكان أبو بكر قد أوفد خالد بن سعيد أيضاً للغرض نفسه ، حين أوفد الجيوش إلى الشام بقيادة يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص[2] ، أوفده إلى تيماء لمراقبة العرب المتنصّرة وكان الهدف الذي عينه أبو بكر في أمره لعياض يضطره الى اقتحام دومة الجندل ؛ لأن الطريق بين مكان عياض والمصيخ لابُدّ أن يمر بوادي السر ، لهذا كان ينبغي لعياض أن يطلب معونة المسلمين من قضاعة في طريقه الى الواحة

وذكر « كيتاني » أن الروايات المدنيّة لم تشر إلى عياض في حوادث سنة ١٢ للهجرة ، واستنتج من ذلك أنه لم يشترك في أحداث تلك السنة ، وقال : إن سكوت الراويين المدنيين يبرهن على أن اشتراكه في الحركات العسكرية سنة ١٢ للهجرة أمر خيالي ولكن « موسل » انتقد قول كيتاني هذا ، وقال إنه لا يتفق مع كيتاني في هذا الاستنتاج ، وفي سبيل الرد عليه ذكر أنه على الرغم من أن الراويين المدنيين لم يشيرا الى المثنى بن حارثة ، فان كيتاني اعترف بأن المثنى كان شخصية تاريخية ذات شأن وذات شهرة كبيرة في فتوحات فارس . وقال موسل : صحيح أن عياضاً ، كما روى أبو مِخْنَف ، لم يشترك في فتوحات العراق في سفر خالد ، وأنه

(١) الطبري (٢/٣٧٢ — ٣٧٣)

(٢) أشرنا إلى ذلك في مقالنا (معركة أجنادين) في المجلد الثاني من مجلة المجمع العلمي العراقي

لم يُذْكَر في حوادث العراق سنة ١٢ للهجرة ، ولـكنه ليس هنالك من سبب للظن أنـه لم يشترك في محاصرة دومة الجندل . وتقدم خالد في العراق من الجنوب الى الشـمال حتى فتح عين التمر ، وتسـلّم فيها كتاب عياض يستغيث بـه ، وكان يومئـذ ما يزال في واحة دومة الجندل ، وأمتنع في أول الأمر من طلب النجدة لـكن الوليد بن عقبـة الذي كان على رأس نجدة أوفدها الخليفة قد أقنعه في الأخير بأن بالموقف حاجةً كبيرة الى النجدة واستطرد موسل إلى أن دومة الجنـدل ما لم تسقط بيد المسلمين فان القبائل القاطنة في شمالي جزيرة العرب كانت تستطيع أن تقطع خطوط الاتصال بين العراق والشام ، وتتمكن من القيام بهجوم خلفي على المسلمين الذين كانوا يحاربون في جبهتين : العراق ، والشام وانتقد موسل قول كيتاني إنه كان بوسع أبي بكر أن يرسل خالداً من النباج رأساً الى دومة الجندل بدلاً من إرساله من عين التمر ، لأن كيتاني رأى أن سـفر خالد من العراق الى دومـة الجندل يعرّض جنـده لخطر هجوم فارسي يأتيه من خلفه وفي معرض الردّ قال موسـل : إن المسافة بين النباج ودومـة الجندل سبع مئة كيلومتر ، والطريق يمر بمنطقة النفود ، وموارد المياه فيها تبعد في بعض محلاتها زهاء مئتي كيلو مترٍ ، بينما المسافة بين عين التمر ودومـة الجندل هي زهاء خمس مئة كيلو متر ، وكانت القوافل تقطع الطريق بينهما ويستطرد موسل قائلا : يبدو أن كيتاني جهل أن خالداً لو ذهب رأسـاً من النباج الى دومة الجندل لـكان لابد له أن يذهب اليها من عين التمر ومن أُنتقادات كيتاني لحركة خالد ، قوله : إن نظرة بسـيطة على الخارطة ، تظهر أنه ليس ثَمَّـةَ غرض ما من سوق الجيش يحمل خالداً على تركه حدود فارس ، وتوغله في بادية السماوة لفتح دومـة ؛ لأنه في توغله في البادية يصادف عدواً قوياً من جهة ، ويعرّض خطوط رجعته لهجمات الفرس من جهة أخرى ويجيب موسل على هـذه الانتقادات أن ثَمَّـةَ أسباباً جغرافية وعسكرية حملت خالداً على فتح واحة دومة الجندل ؛ لأنها تسيطر على طرق المواصلات في شمالي جزيرة العرب ، فضلاً عن أنها معقل قوي يتملكه أعداء المسلمين ، ومن هذه الواحة يتيسر قطع طرق القوافل التجارية بين دمشق والمدينة وبين الحيرة والمدينة ؛ لهذا كان للحملة الموجهة الى دومة الجندل أهمية بالغة

من الناحية السياسية والعسكرية والتجاريه ، ولو أخفق خالد في فتح دومة ، لتعسر عليه أن ينجز مسيره الى الشام حين طلب اليه الخليفة ذلك ؛ لأنه في سفره من العراق الى الشام كان مُمْنَى بهزيمة لا من جانب الفرس والروم وحدهم ، بل من جانب القبائل الساكنة في شمال جزيرة العرب ، ويؤازرهم في ذلك أهل واحة دومة الجندل ؛ ولهذه الأسباب أحسن خالد عملاً بتلبيته لاستغاثة عياض وبإسراعه في المسير نحوه (١)

قلنا آنفاً : إننا نجهل قوة عياض بن غنم ، وحسبنا أنه رابط في مكانه بين النباج والحجاز لمراقبة الأحوال . يقيناً إن أبا بكر أرسله على رأس قوة ضعيفة ، لأنه كان قد بعث أكثر قواته الى الشام بقيادة الأمراء الثلاثة ، كما بعث قوة غير قليلة الى العراق بقيادة خالد بن الوليد . ويتبين من مطالعة الخارطة أن عياضاً في سفره الى دومة الجندل مرّ بديار طيء ، وجعل تيماء على يساره ، ولعله أستمد رجالاً من طيء ومن قُضاعة ولا بد أن أهل الواحة علموا بسفره نحوهم ، فأستنجدوا بالقبائل المجاورة

حركة خالد بن الوليد الى دومة الجندل : تسلم خالد كتاب عياض ، وأسرع لنجدته ، ونسبت الرواية اليه رجزاً كتبه في حاشية كتابه الموجز الذي أجاب به عياضاً ، وهو :

لَبِّثْ قليلاً تأتِك الحلائبُ يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب

وقد يفهم من هذا الرجز أن خالداً سار على رأس قوة كبيرة ، ولكنه لا الموقف العسكري ولا الموسم كان يساعد أن يسير خالد في قوة كبيرة ؛ لأنه ترك المثنى وجنده من بكر في العراق ، وأضطر الى إقامة بعض الجند في الأماكن التي فتحها ، فضلاً عن ضرورة إقامة حامية في كل من الحيرة وعين التمر

وكانت القوة التي ترأسها ، في أغلب أحمال ، خيالة أو هجانة ، وكان الموسم وقتئذ صيف سنة ١٢ للهجرة ، والتاريخ نهاية شهر ربيع الآخر أو أوائل جمادى الأولى وهذا يصادف

(١) وردت هذه الملاحظات في كتاب موسل (البادية العربية) (ص ٥٤٩) من الملحق

شهر تموز سنة ٦٣٣ م . وفي هذا الشهر تكون مياه الأمطار المتراكمة في البرك والخبرات (جمع خبرة) قد قلّتْ ، لذلك لا نظن أن خالداً سار على الطريق الأقصر الذي يربط عين التمر بدومة الجندل ، ويتعسر على قوة خيالة أن تقطعه في الصيف لندرة الماء فيه والروايات التي ذكرت أن خالد بن الوليد فتح دومة الجندل في طريقه إلى الشام ، جعلت بَدْءَ حركته من الحيرة ؛ لهذا نجزم أنه سار على طريق الحيرة — دومة الجندل ، أي أنه عاد من عين التمر الى الحيرة ، ومنها أخذ طريق القوافل : « القادسية — القرعاء — وقصة — حبكة — سكاكة — دومة الجندل » فان المسافة بين عين التمر والحيرة ودومة الجندل ، تبلغ زهاء خمسين كيلو متراً وثمان مئة ، وتقطع في أثني عشر يوماً للمسافر الجدّ ، ولقوة غير قليلة العدد أكثر من ذلك . إن الماء في هذا الطريق متوفر ، ولا بد أن خالداً قضى بعض الوقت بالاستعداد للسفر ، وقد ذكرت الرواية أنه لما بلغ أهلَ دومة مسيرُ خالدٍ اليهم ، بعثوا الى أحزابهم من بهراء وكلب وغسّان وتَنُوخ

ومما أورده موسل في كتابه « البادية العربية » أن أهل دومة الجندل كانوا على أتصال مستمر بواحة عين التمر ، ولا بد أنهم كان لهم فيها جواسيس يترقبون حركات خالد في العراق . وقال : إن ساعياً ممتطياً هجيناً سريع السير ، يستطيع أن يقطع الطريق بين عين التمر ودومة الجندل في أربعة أيام ، بينما كان خالد يحتاج الى أسبوعين على الأقل لإكمال أستعداداته للمسير . ويتبين من قوله هذا أن الزمن كان بجانب أهل دومة ، لهذا أنجدهم الأحزاب قبل وصول خالد .

وتشير الرواية الى أختلاف حدث بين أكَيْدر والجودي الأول لا يريد الحرب ، والثاني يريدها وكان الأكيدر قد خبر خالد بن الوليد قبلاً ، وقد أسره وبعث به الى الرسول كما ذكرنا ، ومما قاله أكيدر لمن أراد الحرب : « أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كَثُروا الّا أنهزموا منه ،

أطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال : لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم [1] »
وكان الأكيدر على حق في تفضيله الصلح على الحرب ، وإذا كان الأكيدر والجودي ومن التف حولهما لم يستطيعوا قهر عياض ، فما أحراهم أن يخسروا المعركة أمام خالد وعياض بالرغم من نجدة الأحزاب لهم ! وكان الخلاف بين الأمير الوراثي صاحب الواحة والقائد العسكري الذي يمثل نفوذ الغسانيين ولما رأى الأكيدر أنهم لم يطيعوه ، خرج لِطِيَّتِهِ ، وترك الواحة ، فأصبح الجودي الحاكم الوحيد فيها . هكذا تغلب الحزب الحربي ، ولقي حتفه بيده وذكرت الرواية أن خالداً علم بخروج الأكيدر من دومة ، فبعث عاصم بن عمرو معارضاً له ، وادّعى الأكيدر أنه خرج ليلاقي خالداً ، ولكن استصحبه عاصم ، وأتى به خالداً ، فأمر به فضربت عنقه ، وأخذ ما كان معه من شيء ، ومضى خالد حتى نزل على أهل دومة .

ويفهم من الرواية أن الأكيدر فضّل ملاقاة خالد على الهرب ؛ لأن الطريق الوحيد الذي يسلكه بأمان هو الطريق الذي يذهب الى الشام ماراً ببصرى ، وكان حينئذ ما يزال بيد الروم ، فضلاً عن أن البلاد كانت تحت نفوذ آل غسان . لهذا كان بامكانه أن يلتجئ اليهم ، ولكن إلقاء عاصم القبض عليه دلّ على أنه سلك طريقاً آخر ، لهذا لا نستبعد أنه أراد « الدخالة » على خالد ، ولكن خالداً لم يقبل دخالته ، انما حكم فيه السيف ؛ لأنه نكث العهد الذي عاهد به الرسول .

فتح دومة الجندل : وصل خالد الى واحة دومة الجندل من الشرق ، وحاصرها من هذه الجهة ، وكان عياض بن غنم وجنده في غربي القصبة هكذا أصبحت القصبة محاصرة من الجهتين وذكر موسل الذي زار الواحة ، وشاهدها عن كثب ، ووصفها : أن القوات المنجدة نزلت في أطراف الحصن ؛ لأن الساحة كانت ضيقة لا تؤوي الجميع وجاء في الرواية ما يأتي : « ومضى خالد حتى نزل على أهل دومة ، وعليهم الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي وابن رومانس الكلبي وابن الأيهم وابن الحدرجان ، فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ،

(١) الطبري (٥٧٨/٢).

وكان النصارى الذين أمدوا أهلَ دومة من العرب محيطين بحصن دومة ، لم يحملهم الحصن » . وكان الموقف العسكري قد جعل المسلمين في الخطوط الخارجة ، والأعداء في الخطوط الداخلة : المسلمون يسدون الطريق على الأعداء من الشرق والغرب ، والأعـداء بين الخطين الخارجين يتحفزون للهجوم

ودلت الرواية على أن الجودي ووديعة ، أي حامية الغسانيين ومن أنجدها من تنوخ والنجدات الكلبية ، واقفين بوجه خالد أما أبن الحدرجان وأبن الأيهم ، فوقفا بوجه عياض .

ولما كانت الساحة لا تستوعب الجميع ، وكان الحصن لا يستوعبهم ، كان لزاماً على القوات المحصورة أن تشن الهجوم لطرد المحاصرين وهذا ما وقع ، هاجم الجودي ووديعة خالداً ، وهاجم أبن الحدرجان وزميله عياضاً وذكرت الرواية : « أن الفريقين اقتتلا ، فهزم الله الجودي ووديعة على يد خالد ، وهزم عياضٌ من يليه ، وركبهم المسلمون فأما خالد ، فانه أخذ الجودي أخذاً ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة ، وأرز الناس الى الحصن ، فلم يحملهم . فلما امتلأ الحصن ، أغلق من في الحصن الحصنَ دون أصحابهم ، فبقوا حوله حرداء[1] » ، فوجب على خالد مقاتلة الحرداء أولاً ، ثم أقتحام الحصن . ويبدو أن القتال في أطراف الحصن كان عنيفاً بين رجال خالد الذين كانوا يريدون أن يتخلصوا من الحرداء ، للتفرغ للحصن ، وبين الحرداء من كلب وبهراء والضجاعم الذين يقاتلون قتال المستميت . أما الغسانيون فالظاهر أنهم التجؤوا الى الحصن ، وكانوا رابطته وفي هذا الموقف العصيب فعلت الحمية الجاهلية فعلها ، فأراد عاصم بن عمرو التميمي أن يجير حلفاءه في الجاهلية بني كلب ، فنادى : « يا بني تميم ، حلفاؤكم كلب أسروهم وأجيروهم ، فانكم لا تقدرون لهم على مثلها » وكان بنو تميم حلفاء بني كلب قبل الإسلام ، فأراد رئيس التميميين عاصم أن ينقذ الكلبيين من القتل ، فلبى التميميون نداء رئيسهم ، وكان نداؤه سبباً لنجاة بني كلب .

ثم أقبل خالد على من التف حول الحصن ، وذكرت الرواية : « أنه قتلهم حتى سدّ بهم

(١) الطبري (٢/٥٧٩)

باب الحصن ، ودعا الجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسرى فضرب أعناقهم ، الا أسارى كلب ، فان عاصماً والأقرع وبني تميم قالوا : قد أمناهم فأطلقهم خالد ..... ثم أطاف خالد بالباب ، فلم يَزُل عنه حتى اُقتلعه ، واُقتحوا عليهم ، فقتلوا المقاتلة ، وسبوا الشّـرخ » .

وبفتح خالد لدومـة الجندل سيطر على أهم طريق في شمالي جزيرة العرب ، ومكث بعد ذلك مدة قصيرة في دومة ، وفي أثناء عودته في الطريق ، بعث الأقرع الى الانبار ، وسار على رأس باقي قوته الى الحيرة ، فاُستقبل فيها استقبال الفاتحين ؟

طه الهاشمي

﴿ فهرست الجزء الأول من المجلد الرابع ﴾

المقالات

الكتب

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي